مجلة جامعة الملك سعود، م٤، الآداب (١)، ص ص٢٥-٧٦ (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

# كتابة الشعر الجاهلي

**فضل بن عمار العماري**

*أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية*

(ورد بتاريخ ١١/٤/١٤٠٩هـ، وقبل للنشر بتاريخ ٢٥/١٠/١٤١٠هـ)

**ملخص البحث.** ظل الاعتقاد فترة طويلة بأن الشعر الجاهلي قد خضع للكتابة قبل فترة التدوين المعروفة. وتحمس لهذا الاعتقاد كثير من الباحثين حتى غلب على مجمل كتاباتهم عن هذه الفترة. فعملوا على بث هذه الأفكار وترويجها على الرغم من حشدهم لتلك الأفكار كل ما وقع تحت يدهم من مادة، كانت تحتاج إلى تأمل وتريث قبل إصدار أحكامهم القاطعة. واندفاعا وراء الحماسة لإثبات صحة الشعر الجاهلي، كان بديهيا أن تتضارب النتائج وتتناقض ولا تتفق مع المقدمات. فإذا كنا ندرك أن الشعر جاءنا شفويا، وإذا كنا نقر بتخلف الخط العربي في تلك الفترة، وأن الأمية بكل دلالاتها هي سمة ذلك العصر، فكيف يجوز لنا أن نرى في أولئك الشعراء من له المقدرة على كتابة قصيدة أو مجموعة شعرية؟ ولهذا فلا عبرة بما يروى عن كتابة الشعر بخط كالخط المسند، والذي لم يكتشف فيه حتى الآن أية دلالة شعرية. وما رواه الإسلاميون بعد ذلك عن شعراء يمانيين قدامى هو محض خيال وتزييف.

ومن ثم فإن كل العبارات التي جاءت في الشعر الجاهلي عن الكتابة كانت إما تشبيهات تعكس الجهل بها، وليس ممارستها، وإما تعبيرات مجازية كان المراد منها النقل مشافهة.

وإذا كان لنا أن نتصور الكتابة في شبه الجزيرة العربية، فهي الكتابة بخطوط غير عربية وبخاصة الكتابات الدينية، ولا يمنع ذلك أن يكون العرب في البيئات الحضرية قد استخدموا الخط العربي في المسائل الرسمية، وهي كتابات دائما يغلب عليها طابع الإيجاز.

ومن هنا كان علينا في هذا البحث أن نعيد النظر في هذه القضية وأن نتتبع دقائقها لنتوصل إلى ما قد يبدو مقنعا بأن العرب لم يكتبوا شعرا أيا كانت الكتابة إذ لم يكن في قدرة واحد من أولئك الشعراء القيام بذلك.

## النمط الشائع

يشوب الغموض حالة الكتابة في عصر ما قبل الإسلام، ولقد تضاربت آراء الباحثين في تدوين الشعر الجاهلي. فعلى الرغم من أن الجميع يقر بأن الطريق المهمة والرئيسة لإيصال الشعر كانت الرواية الشفوية،[١] فإن بعضهم يرى أن جزءا يسيرا كان قد دون،[٢] ويدفعهم إلى ذلك إشارات شعرية إلى الكتابة وأدواتها وردت في ثنايا الشعر أغلبها تشبيهات للأطلال بالكتابة. فمن ذلك قول زهير مشبهاً الديار القديمة الدارسة بكتابة على حجر شديد الصلابة، ومستخدما الصفة مخلد، أي خالد دائم، وذلك دليل على قدم الكتابة نفسها:

لِمَنِ الدِّيَارُ غَشِيتَهَا بِالْفَدْفَدِ كَالْوَحْيِ فِي حَجَرِ الْمَسِيلِ الْمُخْلِدِ[٣]

وقول عبيد بن عبدالعزى السلامي:

رُسُوماً كَآيَاتِ الْكِتَابِ مُبِينَةً بِهَا لِلْحَزِينِ الصَّبِّ مَبْكىً وَمَوْقِفُ[٤]

وقول بشر بن عليق الطائي:

أَذَاعَتْ بِهِ الأَرْوَاحُ حَتَّى كَأَنَّمَا حَسِبْتَ بَقَايَاهُ كِتَاباً مُنَمْنَمَا[٥]

وقول المتلمس:

---

(١) جواد علي، «تدوين الشعر الجاهلي،» *مجلة المجمع العلمي العراقي*، ع٢ (١٩٥٦م)، ص ص٥٢٠ ـ ٥٦٢.

(٢) F. Frenkow, "The Use of Writing for the Preservation of Ancient Arabic Poetry," in a volume of *Oriental Studies* presented to Edward G. Browne (Cambridge Univ. Press, 1922), 261-68.

(٣) أبوالعباس ثعلب، *شرح شعر زهيربن أبي سُلمى*، تحقيق فخرالدين قباوة، ط ١ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص ١٩٤.

(٤) *قصائد جاهلية نادرة*، تحقيق يحيى الجبوري، ط ١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص ١٢٥.

(٥) الجبوري، *قصائد جاهلية*، ص١٨٧.

فَكَـأَنَّـمَا هِيَ مِنْ تَقَـادُمِ عَهْـدِهَـا رَقٌّ أُتِـيحَ كِتَـابُهَـا مَسْـطُورُ(٦)

وقول امرىء القيس مشبها ما عمي عن الناظر إليه فلم يُتبين من رسوم الدار من المطر «بعمايا» بالكتب:

أَمْ هَيَّجَتْـكَ دِيَارُ الْحَيِّ إِذْ ظَعَنُـوا عَنْهَـا كَأَنْ بِعَـمَايَا رَسْـمِـهَـا كُتُـبُ(٧)

ومن الصور التي اقترنت بالأطلال صورتها وقد استحالت سودا لطول العهد بها فتغير لونها فشبهها المرار بن سعيد الفقعسي بسواد المداد في الكتاب فقال:

عَفَـتِ الْمَنَـازِلُ غَيْرَ مَثْـلِ الأَنْـقُسِ بَعْـدَ الـزَّمَـانِ عَرَفْـتَـهُ بِالْقَـرْطَسِ(٨)

ونادرا جدا ما خرجت تلك التشبيهات عن ذلك الوصف، كما فعل تأبط شرا حين شبه الصحراء بالصحيفة في قوله:

فَإِنِّي قَدْ لَقِـيتُ الْـغُـولَ تَهْوِي بِسَـهْـبٍ كَالـصَّـحِيفَـةِ صَحْصَحَـانِ

---

(٦) «ديوان شعر المتلمس الضبعي،» تحقيق حسن كامل الصيرفي، *مجلة معهد المخطوطات العربية*، م ١٤ (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ص ٢٨٧. وقال طرفة بن العبد:

أَشَـجَـاكَ الـرَّبْـعُ أَمْ قِدَمُـهْ أَمْ رَمَـادٌ دَارِسٌ حُمَـمُـهْ
كَسُـطُورِ الـرَّقِّ رَقَّـشَـهُ بِالـضُّـحَـى مُرَقِّشٌ يَشِـمُـهْ

*ديوان طرفة بن العبد*، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال (دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ص٧٤. وقال الشاعر الإسلامي جران العود مبينا شدة تأثره بالنمط القديم:

تُرِكْـنَ بِرِجْـلَةِ الـرَّوْحَـاءِ حَتَّـى تَنَـكَّـرَتِ الـدِّيَارُ عَلَى الْـبَـصِـيرِ
كَوَحْـيٍ فِي الْحِـجَـارَةِ أَوْ وُشُـومٍ بِأَيْدِي الـرُّومِ بَاقِـيَةِ الـنُّـؤُورِ

*ديوان جران العود* (القاهرة: دار الكتب، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م)، ص٢٤.

(٧) *ديوان امرىء القيس*، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ط ٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤م)، ص٣٠٠.

(٨) أبومحمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري، *المفضليات*، تحقيق كارلوس يعقوب لايل، (بيروت: الآباء اليسوعيين، ١٩٢٠م)، ص٧٤٣.

وكما فعل المخبل السعدي حين شبه وجه محبوبته بالصحيفة فقال:

وَتُــرِيكَ وَجْــهــاً كَالــصَّــحِــيفَــةِ لاَ ظَمْآنَ مُخْتَــلَجٌ وَلاَ جَهْــمُ(١٠)

وقد وردت إشارات أكثر عمقا من مجرد التشبيه دار أغلبها حول ذلك الوصف ولكنها لم تقتصر على تشبيه الطلل بالنقش والكتابة وأن عوامل التعرية قد أثرت فيه فأحالته إلى رسوم تشبه في مخيلة الشاعر الجاهلي رسم الكتابة، وإنما جاءت تلك الإشارات مبينة أوضاعا معينة أو محددة حالات خاصة مشيرة إلى حركة الكاتب وعمله مثل قول أعشى جلان حيث يشير إلى تزيين الكاتب عمله:

هَلْ تَعْــرِفُ الــدَّارَ عَفَــا رَسْــمُــهَــا بَيْنَ سَنَامِ الْخُــفِّ فَالْحَــاجِــبِ
فَالــدَّبْــرُ وَالْــعَــسَّــانُ قَفْــرٌ كَمَا نَمْــنَــمَ رَقًّــا قَلَمُ الْــكَــاتِــبِ(١١)

وإذا كانت النمنمة والأقلام من التعبيرات الشائعة بينهم على الرغم من خروجها عن حد التشبيه المجرد وإنما فيه تفصيل وزيادة، فإن بعض الشعراء دققوا في صورهم نوعا ما فجاءت طريفة كما قال ثعلبة بن عمرو العبدي:

لِمَنْ دِمْــنٌ كَأَنَّهُنَّ صَحَــائِــفُ قِفَــارٌ خَلاَ مِنْهَــا الْــكَــثِــيبُ فَوَاحِــفُ

ثم يقول:

أَكَــبَّ عَلَيْهَــا كَاتِــبٌ بِدَوَاتِــهِ يُقِــيمُ يَدَيْهِ تَارَةً وَيُخَــالِــفُ(١٢)

ومثل ذلك قول سلامة بن جندل:

لِمَنْ طَلَلٌ مِثْــلُ الْــكِــتَــابِ الْمُــنَــمَّــقِ خَلاَ عَهْــدُهُ بَيْنَ الــصُّــلَيْبِ فَمُــطْرِقِ
أَكَــبَّ عَلَيْهِ كَاتِــبٌ بِدَوَاتِــهِ وَحَــادِثُــهُ فِي الْــعَــيْنِ جِدَّةُ مُهْــرَقِ(١٣)

---

(١٠) الأنباري، *المفضليات*، ص٢١٣.

(١١) أبوالعباس ثعلب، *كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير*، تحقيق رودولف جاير (فينا: أدلف هلز هوسن، ١٩٢٧م)، ص٢٧٥.

(١٢) ابن الأنباري، *المفضليات*، ص ص٥٥٩، ٥٦١.

(١٣) *ديوان سلامة بن جندل*، تحقيق فخرالدين قباوة، ط ١ (حلب: المكتبة العربية، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م)، ص ص١٥٥ ـ ١٥٦.

وهناك صورة أخرى ينقل فيها الشاعر المخضرم مليح بن الحكيم الهذلي حركة الكتابة موردا ذكرالإعجام وكيف أن الكاتب يخط ويمحو كما تفعل الرياح في رسوم الأطلال الدارسة، يقول:

تُمْحَى الـرُّسُـومُ وَتُبْـدِي مِنْ مَعَـارِفِهَـا أَشْـيَاءَ فِيهَـا لِذِي الأَشْـوَاقِ تَهْيِيجُ
مِثْـلَ الْـكِـتَـابِ إِذَا مَا خُطَّ بَيِّنَـهُ فِي وَاضِـحِ اللَّوْنِ إِعْجَـامٌ وَتَعْـرِيجُ(١٤)

وذكر الإعجام هنا هو تأكيد قاطع على أن هذه اللغة التي ينقلها لنا مليح لغة غير العربية وهي لا تعدو أن تكون اللغة السريانية التي كتبت بها الأناجيل المسيحية، أو اللغة العبرانية التي كتبت بها التوراة، لأن هاتين اللغتين هما اللغتان اللتان عرفتا الإعجام «نقط الحروف» وذلك بعد مراحل من التطور في كتابة كل منهما، ولم تعرف اللغة العربية الإعجام قط إلا بعد كتابة المصاحف وبعد أن مر الخط العربي بظروف كالتي مرت بها هاتان اللغتان. ثم إن تشبيهه الكتابة بالأطلال الدارسة، وقوله «وتعريج» يدلان على الصورة المشوهة غير الواضحة الكتابة. وهي صورة غير منسقة في ذهنه وإنما ذات تعاريج وصورته لا تختلف عن مثيلاتها من الصور المألوفة المكررة، ولعل هذه الكتابة على الأرجح هي كتابة باللغة العبرية التي تتميز حروفها بهذا الشكل من أشكال الكتابة أكثر من اللغة السريانية. وسوف نرى أن ذا الرمة يذكر الإعجام أيضا، وعلى الرغم من أن الإعجام في عصر ذي الرمة كان معروفا في اللغة العربية، فإن نمطية الصورة وحالة ذي الرمة التي سنناقشها بعد حين تدلان على أن هذا «الإعجام» أو «التعجيم» هو في غير اللغة العربية.

أما محاولة بعض الدارسين افتراض وجود نقط الحروف قبل الإسلام وتعليل ذلك بشتى التعليلات(١٥) فهي محاولة لا تستند إلى واقع علمي إطلاقا خاصة أن الكتابة النبطية

(١٤) أبوسعيد الحسن بن الحسين السكري، كتاب شرح *أشعار الهذليين*، تحقيق عبدالستار أحمد فرّاج (القاهرة: مطبعة المدني، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م)، مج ٣، ص١٠٦٢.

(١٥) سهيلة ياسين الجبوري، *أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي* (بغداد: مطبعة الأديب، ١٩٧٧م)، ص ص١٥٤ ـ ١٦٠. فمن هذه التعليلات أن الكتابة قبل الإسلام كانت إما على الحجر أو على البردي ولذلك صعب نقطها. ولكن مع ذلك هناك بعض الكلمات كانت منقوطة حتى على الحجر مثل الحجر الذي عثر عليه قرب مكة سنة ٤٦هـ وحجر حفنة الأبيض سنة ٦٤هـ، بل وعلى بردية سنة ٢٢هـ؛ الجبوري، *أصل الخط*، ص ص١٥٨ ـ ١٥٩.

التي اشتقت منها الكتابة العربية لم تعرف الإعجام، (١٦) وتؤيد كل الدراسات الحديثة خلو الكتابة العربية منه حتى قبيل الإسلام. (١٧)

## الاتباع والتقليد

ومن ثم نستطيع أن نمضي في الاستشهاد والمعالجة، فلا نجد إلا نقلا للصور والتشبيهات من غير تحديد. وإذا نظرنا في الأبيات التي طالما استشهد بها على الكتابة، نجد الشعراء يتوجهون بالخطاب إلى آخر. ولو كان الشاعر يكتب حقا لأشار إلى نفسه بدلا من غيره ثم لو كان هذا الشاعر يملي شعره كما سنرى مع جرير في العصر الإسلامي لبدت منه إشارة ولو هينة إلى استعمال الكتابة بدلا من تكرار قولهم إنهم يعتمدون على الرواية. فمن ناحية إشاراتهم إلى المخاطب بالإضافة إلى الشواهد السابقة قول معاوية بن مالك:

مِنَ الْأَجْزَاعِ أَسْفَلَ مِنْ نُمَيْلٍ كَمَا رَجَّعْتَ بِالْقَلَمِ الْكِتَابَا (١٨)

ومن إشارتهم إلى الإنسان الآخر قول الأخنس بن شهاب التغلبي:

لِابْنَةِ حِطَّانَ بْنِ عَوْفٍ مَنَازِلٌ كَمَا رَقَّشَ الْعُنْوَانَ فِي الرَّقِّ كَاتِبُ (١٩)

ومن ناحية الرواية قول أمير الشعر القديم:

وَرَاوِيَتِي فَوْقَ أَعْلَى الرُّوَاةِ عَلَى كُلِّ صَوْتٍ لِيَ الْأَبْضَ صَوتُ

---

(١٦) خليل يحيى نامي، «أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام،» *مجلة كلية الآداب*، جامعة *القاهرة*، مج٣، ع١ (١٩٣٥م)، ص ٨٧.

(١٧) إبراهيم عبدالعزيز برهام، «أوليات الدراسات اللسانية عند العرب، النقط،» *مجلة اللغة العربية*، جامعة *أم القرى*، مج٢، ع٢ (١٤٠٤/١٤٠٥هـ)، ص ص٣٠٥ - ٣٤٤، يقول برهام: «إن نظام النقط وافد على وسائل الضبط العربية، ولا يضير العمل العربي الذي به صين كتاب (الله) أن يكون ترسم خطا عمل آخر سبقه،» ص٣٤٣، وانظر صورة الحروف السريانية والعبرانية المنقوطة، ص ص٣٢٧ - ٣٣٦. وانظر عن نقط الإعجام أيضا: رسم *المصحف: دراسة لغوية تاريخية* (بيروت: مؤسسة المطبوعات العربية، ١٩٨١م)، ص ص٤٦٨ - ٤٧٦.

(١٨) ابن الأنباري، *المفضليات*، ص٦٩٨.

(١٩) ابن الأنباري، *المفضليات*، ص٤١٠.

ثم يقول:

وَشِـعْـرٍ نَطَقْتُ وَشِـعْـرٍ وَقَـفْـتُ     وَشِـعْـرٍ كَتَـمْـتُ وَشِـعْـرٍ رَوَيْتُ
تُخَبِّرُنِي الجِـنُّ أَشْـعَـارَهَـا     فَمَا شِئْتُ مِنْ شِعْـرِهِـنَّ اصْـطَفَيْتُ[٢٠]

ويقول:

أَنَـا الشَّـاعِـرُ الْمَوْهُـوبُ حَوْلِي تَوَابِعِي     مِنَ الْجِـنِّ تَرْوِي مَا أَقُـولُ وَتَـعْـزِفُ
إِذَا قُلْتُ أَبْـيَاتـاً جِيَاداً حَفِـظْتُـهَـا     وَذَلِـكَ أَنِّي لِلْقَـوَافِي مُثَـقِّـفُ[٢١]

ألم يكن بإمكانه أن يقول «كتبت» أو «خططتها» بدلا من أي فعل في البيت الأول أو بدلا من «حفظتها» في البيت الأخير. وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام جدا في الأبيات التي سبقت أبيات امرىء القيس، وهي أن كل أولئك الشعراء كانوا يشبهون الأطلال الدوارس بالكتابة وهذا يعني أن صورة الكتابة في أذهانهم كانت صورة هزيلة سيئة. وهذا يعكس صورة تلك الكتابات في عين ذلك الشاعر البدوي الأمي. وبالتالي يمكن أن نقول إن كل تشبيهات الكتابة هي تشبيهات للكتابة السيئة أصلا، ولا يبعد بعدئذ أن تكون هي الكتابة بالمسند خاصة وقد رأينا لبيدا وامرأ القيس يسميان كتّابها «وليد يمان».

## الكتابة الأجنبية

فإذا كانت الإشارات إلى الكتابة لا تخرج عن مجرد التشبيه بالأطلال والرسوم، وأنه لم يثبت استعمال الشاعر الكتابة لكتابة الشعر، فما معنى قول أبي ذؤيب الهذلي:

عَرَفْـتُ الـدِّيَارَ كَرَقْـمِ الـدَّوَا     ةِ يُزَبِّـرهَـا الْـكَـاتِـبُ الْحِـمْـيَرِيُّ[٢٢]

وقول لبيد:

فَنَـعَـافِ صَـارَةَ فَالْـقَـنَـانِ كَأَنَّهَا     زُبُـرٌ يُرَجِّـعُـهَـا وَلِـيدُ يَمَانِ
مُتَـعَـوِّدٌ لَحِنٌ يُعِـيدُ بِكَـفِّـهِ     قَلَماً عَلَى عُسُـبٍ ذَبُـلْنَ وَبَـانِ[٢٣]

---

(٢٠) *ديوان امرىء القيس*، ص ص٣١٩ - ٣٢٢.

(٢١) *ديوان امرىء القيس*، ص٣٢٥.

(٢٢) السكري، *شرح أشعار الهذليين*، مج١، ص٩٨.

(٢٣) *شرح ديوان لبيد بن ربيعة*، تحقيق إحسان عباس (الكويت: مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٢م)، ص١٣٨.

أليست هذه إشارة إلى أن الكتابة كان يمارسها غير أولئك، وأنه حتى تلك الإشارات إلى الكتابـة لم يكن المقصود بها إلا الكتابة عند غير عرب الشمال؟ نجد ذلك مثلا عند عبدالله بن سليم الأزدي السلاماني حيث يقول:

فَبِشَطٍّ بُسْيَانَ الرِّيَاغِ كَمَا كَتَبَ الْغُلَامِ الْوَحْيَ فِي الصَّخْرِ[٢٤]

إن الغـلام هنـا هو نفسه «وليد يمان» في البيتين السابقين، وهو الذي ينحت على الصخور «المساند،» وهو المعنى الذي طرقه لبيد حين تحدث عن النحت على الصخور:

فَمَدَافِعُ الرَّيَانِ عُرِّيَ رَسْمُهَا خَلَقاً كَمَا ضَمِنَ الْوُحِيَّ سِلَامُهَا

لقد علق البكري في *سمط اللآلىء* على إشارة لبيد تلك فقال: «قال يمان لأن اليمن ريف، وبه الكتاب، وليس بالبدو كتاب.»[٢٥] وقد أشار المستشرق التشيكي بتراجيك إلى ذلك حين قال: «وقد تحدث الشعراء العرب المتأخرون عن الكتب اليمنية على الرقاع أو حزم أوراق النخيل.»[٢٦]

فإذا كان ذكر الكتابة لا يعني وجودها عند عرب الشمال مدار الحديث، وإنما الكتابة عند الأمم الأخرى، فإن ذكر الكتب أيضا إنما يعني كتب الأمم الأجنبية وفي لغة غير اللغة العربية. يقول عنترة:

كَوَحْيِ صَحَائِفٍ مِنْ عَهْدِ كِسْرَى فَأَهْدَاهَا لِأَعْجَمَ طِمْطِمِيٍّ[٢٧]

الوحي، والصحائف من الألفاظ التي ترددت في تشبيه الرسوم والأطلال بالكتابة. وكما

---

(٢٤) *قصائد جاهلية نادرة*، ص٢٠٠.

(٢٥) أبوعبيد البكري، سمط اللآليء، تحقيق عبدالعزيز الميمني (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م)، مج١، ص١٤. ولذلك جاء المثل: «أبقى من وحي في حجر» لأن عرب اليمن كانوا يكتبون في الحجارة والسِّلام، حمزة الأصفهاني، *الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة*، تحقيق عبدالمجيد قطامش (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١م)، مج١، ص٩٣.

(٢٦) K. Petracek, *Quellen and Anfange des Arabischen Literatur*. Archiv Orientaini, No. 36 (1968), p. 384.

(٢٧) *ديوان عنترة*، تحقيق كرم البستاني (بيروت: دار بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ص٧٨.

يوضح لنا عنترة أنها وحي وصحف باللغة الفارسية يقرؤها أعجمي عن اللغة العربية. وقد لخص المعنى السابق عبيد بن عبدالعزى السلامي فقال:

فَلَمْ يَتْرُكَا إِلَّا رُسُوماً كَأَنَّهَا أَسَاطِيرُ وَحْيٍ فِي قَرَاطِيسِ مُقْتَرِي[٢٨]

وقال زهير:

دَارٌ لِأَسْمَاءَ بِالْغَمْرَيْنِ مَاثِلَةٌ كَالْوَحْيِ لَيْسَ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا أَرِمُ[٢٩]

## الكتب الأجنبية

نصادف أحيانا ذكر أسماء كتب بأعيانها تشبه بها الأطلال الدوارس. فهناك المهرق كما مر بنا، وهناك الزبر وغيرهما، والزبر هي كتب لغير العرب يقرؤها أولئك فيراهم الشاعر الجاهلي فينقل صورتهم إلى شعره مشبها الأطلال والرسوم بها وبآثار الكتابة فيها. يقول امرؤ القيس:

لِمَنْ طَلَلٌ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِي كَخَطِّ زَبُورٍ فِي عَسِيبِ يَمَانِي[٣٠]

فالزبور كتاب بغير اللغة العربية، كما هو واضح من قول لبيد السابق. وكما جاء الفعل منه في بيت أبي ذؤيب. وإنما كانت اليمن تكتب الزبور في العسيب ـ وهو أداة تعكس الرؤية المعتمة للكتاب كما هو بيِّن من مقارنة الأطلال بها ـ لأنهم كانوا كذلك يكتبون عليها عهودهم وصكاكهم،[٣١] ويعني ذلك أنهم يكتبون العهود والصكاك بخط غير عربي ـ ألا

(٢٨) *قصائد جاهلية نادرة*، ص١٢٩.

(٢٩) ثعلب، شرح شعر زهير، ص١١٦.

(٣٠) *ديوان امرىء القيس*، ص٨٥، وقال لبيد (*ديوان لبيد*، ص١١٩):

أَوْ مُذْهَبٌ جَدَدٌ عَلَى أَلْوَاحِهِنَّ النَّاطِقُ الْمَبْرُوزُ وَالْمَخْتُومُ

ولعل الرواية الصحيحة لهذا البيت «مزبور» وليس «مبروز،» كما ذهب إلى ذلك أبوحاتم في البيت المنسوب إلى لبيد أيضا:

كما لاح عنوان مزبورة يلوح مع الكف عنوانها

انظر: الزبيدي، *التاج*، برز.

(٣١) *ديوان امرىء القيس*، ص٨٥. وقد وضح ذلك أيضا في قول طرفة في إشارته إلى الكتابة عند أهل الشام: ـــ

وهو الخط المسند. ومن ثم نمضي في فهم الزبر على أنها كتب لغير العرب، فمن ذلك قول الأعشى:

أَوَلَنْ تَرَى فِي الزُّبْرِ بَيِّنَةً بِحُسْنِ كِتَابِهَا(٣٢)

وقد أخبرنا لبيد أنه أخذ رسالة من أحد ملوك الحبشة، وهو دليل آخر على أن من يمارس الكتابة كان من غير العرب، وأن صور تلك الرسائل كانت خالدة في أذهانهم ينقلونها حينما يصورون بقايا الديار، يقول:

وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى خُمَيِّرَ بَيْتَهُ مُتَنَكِّراً فِي مُلْكِهِ كَالأَغْلَبِ
فَأَجَازَنِي مِنْهُ بِطِرْسٍ نَاطِقٍ وَبِكُلِّ أَطْلَسَ جَوْبُهُ فِي الْمَنْكِبِ(٣٣)

ولنا أن نفهم كذلك أن كتبا عادية في قول الشاعر الإسلامي نابغة بني شيبان الذي سيمر بنا بعد قليل، هي إشارة إلى عادٍ التي طالما ذكرت في الشعر القديم. وسواء قصد بها عادُ القبيلة فعلا أم مفهوم القدم على نحو عام فليس فيها ما يدل على أنها كانت كتبا عربية.

ومن ثم، فإذا كانت الزبر والكتب العادية والنحت على الصخور، أو حتى ذكر الصحف والوحي، من مواد الكتابة عند غير العرب، وإنما ذكرها العرب تشبيها فيمكن أن نذهب أيضا إلى أن «المهارق» هي صحف فارسية كما عبر عن ذلك زهير بقوله:

عَلَى لَاحِبٍ مِثْلِ الْمَجَرَّةِ خِلْتُهُ إِذَا مَا عَلَا نَشْزاً مِنَ الْأَرْضِ مُهْرَقُ(٣٤)

---

ـ وَخَدٌّ كَقِرْطَاسِ الشَّآمِيِّ وَمِشْفَرٍ كَسِبْتِ الْيَمَانِي قِدُّهُ لَمْ يُجَرَّدِ

فقد شبه بياض خد الناقة ببياض القرطاس وقال شامي لأن أهل الشام نصارى، أهل كتاب، *ديوان طرفة بن العبد*، ص٢٣. وقال أبوداود ناسبا الكتابة إلى (زُغَر) موضع بالشام:

كَكِتَابَةِ الزُّغَرِيِّ غَشَّاهَا مِنَ الذَّهَبِ الدِّلَامِصْ

ابن منظور، *اللسان* (بيروت: دار صادر، د. ت.)، زغر.

(٣٢) *ديوان الأعشى الكبير*، تحقيق محمد محمد حسين (بيروت: دار النهضة، ١٩٧٤م)، ص٣٠١.

(٣٣) *ديوان لبيد*، ص١٥٥.

(٣٤) شرح شعر زهير، ص١٨٤. رفع مهرق طاطال ما بينه وبين خلته، علق عنه خلته، وكأنه قال: علا النشزَ مهرق. وقافية القصيدة مرفوعة أيضا.

أو كما قال عبيد:

إِلَّا أَوَارِيًّا كَأَنَّ رُسُومَهَا فِي مُهْرَقٍ خَلَقِ الدَّوَاةِ لَبِيسِ(٣٥)

وكما قال حسان بن ثابت:

كَمْ لِلْمَنَازِلِ مِنْ شَهْرٍ وَأَحْوَالِ كَمَا تَقَادَمَ عَهْدُ الْمُهْرَقِ الْبَالِي(٣٦)

فالمهارق كما حدثنا عنترة وسيلة للكتابة عند الفرس وإنما شبه العرب الأطلال والرسوم بها لأنها هي التي في أذهانهم مما يؤكد أن تشبيهاتهم كانت قديمة وأنهم إنما ينقلون صورة الكتابة عند غيرهم. وقد أكد لنا ابن الأنباري في شرحه لقول ثعلبة بن عمرو الذي ذكرناه سابقا أن استعمال «الصحف» إنما هو لكتابة الفرس وليس باللغة العربية. يقول ابن الأنباري: «شُبِّهت آثار الديار بكتب الفرس لأنها مخالفة لكتب العربية.»(٣٧)

فلقد كانت الفرس تكتب في الكرابيس وهي ثياب من قطن أبيض يصقلونها بالخرز، وإنما الأصل في مهرق «مُهْرَكَرْدْ» أي صقل الخرزة.(٣٨)

فالقرءة إذن من غير العرب والكتب التي يقرءونها أيضا بغير اللغة العربية، إنهم كما قال كعب بن زهير كذلك:

يَسْقِينَ طُلْساً خَفِيَّاتٍ تَرَاطُنُهَا كَمَا تَرَاطَنَ عُجْمٌ تَقْرَأُ الصُّحُفَا(٣٩)

---

(٣٥) *ديوان عبيد بن الأبرص*، تحقيق حسين نصار، ط ١ (القاهرة: عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م)، ص٦٧.

(٣٦) *ديوان حسان بن ثابت*، تحقيق وليد عرفات (بيروت: دار صادر، ١٩٧٤م)، مج١، ص ٣١٤.

(٣٧) ابن الأنباري، *المفضليات*، ص٥٦١.

(٣٨) شرح *ديوان كعب بن زهير*، ط١ (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م)، ص١٩٥.

(٣٩) شرح *ديوان كعب بن زهير*، ص٧٧.

## الأثـر اليهـودي

وقد تكون الصورة التي نقلها لنا المرار بن منقذ الصورة الفريدة في الشعر الجاهلي حينما أشار إلى (اللام) في قوله:

وَتَـرَى مِنْهَـا رُسُـومـاً قَدْ عَفَـتْ مِثْـلَ خَطِّ الـلَّامِ فِي وَحْيِ الـزُّبُـرْ(٤٠)

ولكن لا يذهب بنا الظن إلى أن هذه (اللام) هي اللام في الكتب العربية، فهي واضحة الدلالة هنا إلى أنها في الزبر. وقد جاء جرير في الإسلام ليكشف لنا عن حروف أخرى مضمنا معاني الاندثار والقدم في الربط بين الأطلال والكتابة في قوله:

حَيِّ الـدِّيَارَ كَوَحْـيِ الْكَـافِ وَالْمِيمِ مَا حَظُّكَ الْـيَومَ مِنْهَـا غَيْرُ تَسْـلِيمِ (٤١)

فهذه الحروف حروف قديمة عرفها العرب بأسمائها منذ الجاهلية، ولكنها ارتبطت في الشعر عندهم بالكتابة عند الأمم الأخرى.

وهذا واضح في قول جرير نفسه مبينا جنس ذلك الكاتب وتلك الكتابة والعلاقة بينها في قوله:

كَأَنَّ أَخَـا الْـيَهُـودِ يَخُطُّ وَحْـياً بِكَـافٍ فِي مَنَـازِلِهَـا وَلَامِ (٤٢)

وكذلك قال حمزة الاصفهاني: «وقد بقي استعمال ذلك عند الإسرائيليين يدرِّسونه الصبيان في المعابد، فيقولون عند تعليمهم هجاء العبرانية: ألف، باء، كمل، دال . . . ثم يتبعونه بما يجيء بعده من قولهم: هوز، حطي، على حكاية لغتهم، وهذا الذي عربه عرب الإسلام، فقالوا: أبجد، مكاذ: ألف، باء، كمل، دال.»(٤٣)

---

(٤٠) ابن الأنباري، *المفضليات*، ص١٥٤.

(٤١) *ديوان جرير*، شرح محمد إسماعيل الصاوي (القاهرة: مطبعة الصاوي، ١٣٥٣هـ)، ص٤٨٨.

(٤٢) *ديوان جرير*، ص٤٩٨.

(٤٣) حمزة بن الحسن الأصفهاني، *التنبيه على حدوث التصحيف*، تحقيق محمد أسعد طلس (دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ص١٦.

وهكذا يقول الراجز ناقلا الصورة المشوهة للكتابة لآثار الطلل ذاكرا بعض الحروف أيضا:

تَخَالُ مِنْهُ الْأَرْسُمَ الرَّوَاسِمَا كَافاً وَمِيماً وَسِيناً وَطَاسِمَا[٤٤]

وقال الراعي في الإسلام:

أَشَاقَتْكَ آيَاتٌ أَبَانَ قَدِيمُهَا كَمَا بُيِّنَتْ كَافٌ تَلُوحُ وَمِيمُهَا[٤٥]

وإذن، فالكتابة المألوفة غالبا لديهم هي كتابة اليهود كما قال أبو حية النميري جاعلاً كتابة اليهودي بعضها متقارب وبعضها مفترق متباين لاقتضاء آثار الديار تلك الصفة والحال، مما يدل على تصورهم لكتابة اليهود أنفسهم:

كَمَا خُطَّ الْكِتَابُ بِكَفٍّ يَوْماً يَهُودِيٍّ يُقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ[٤٦]

ومما يؤكد بروز معارف كتبة اليهود في الشعر القديم قول الشاعر المخضرم عبدالله بن الزبعرى، وقد جمع بين الأطلال والكتابة، ونسبها إلى اليهود:

حَيِّ الدِّيَارَ مما معارف رسمها طُولُ الْبِلَى وَتَرَاوُحُ الْأَحْقَابِ
فَكَأَنَّمَا كَتَبَ الْيَهُودُ رُسُومَهَا إِلَّا الْكَنِيفَ وَمَعْقِدَ الْأَطْنَابِ

ولعل من هذا قول أبي طالب:

فَإِنِّي وَالسَّوَابِحَ كُلَّ يَوْمٍ وَمَا تَتْلُو السَّفَاسِرَةُ الشُّهُودُ

والسفاسرة هم أصحاب الأسفار[٤٨] وأغلب الظن أنهم ههنا اليهود.

---

(٤٤) الزبيدي، *التاج*، ميم.

(٤٥) *ديوان الراعي النميري*، تحقيق رايشهرت فايبرت (فيسبادن: فرانس شتاينر، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م)، ص٢٥٧.

(٤٦) القرطبي، *الجامع*، م٤، جـ٧، ص٩٣.

(٤٧) شعر *عبدالله بن الزبعرى*، تحقيق يحيى الجبوري (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص٢٩. وقال الشماخ:

كَمَا خَطَّ عِبْرَانِيَّةً بِيَمِينِهِ بِتَيْمَاءَ حَبْرٌ ثُمَّ عَرَّضَ أَسْطُرَا

*ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني*، تحقيق صلاح الدين الهادي (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٨م)، ص١٢٩. «والتعريض أن يثبِّج الكاتب ولا يبين الحروف ولا يقوِّم الخط،» الزبيدي، *التاج*، عرض.

(٤٨) الزبيدي، *التاج*، سفر.

وإذا وضعنا في الاعتبار فكرة كتابة الكتب بمعناها الواسع وقضية الكتابة واحترافها ثم علاقة ذلك كله بأهل الكتاب، وبروز صورة اليهود خصوصا في هذا المجال فإن ابني منذر في قول عامر بن الجوين الطائي:

بَيْنَ سَيْلِ الْوَادِيَيْنِ كَمَا نَمْنَمَ ابْنَا مُنْذِرٍ كُتُبَا[٤٩]

ربما كانا من الكتاب اليمانيين لارتباط هذا الاسم كثيرا باليمن وهما ممن عرفوا الكتابة، ولعلهما أيضا من يهود اليمن.

كما ذكر شاعر آخر كاتبا آخر هو الباهلي بن أصمع، مشبها الديار بكتابته التي محاها. وهذا تأكيد أيضا على انعكاس صورة الكتابة في ذهن الشاعر نفسه ورؤيته للكتابة نفسها فقال:

وإلا رسوم الدار قفراً كأنها سطور محاها الباهلي بن أصمعا[٥٠]

وقد ظل هذا التصور حتى الفترة الأموية حيث نلاحظ تكرار ذكر علماء اليهود، كما قال القتال الكلابي:

تُنِيرُ وَتُسْدِي الرِّيحُ فِي عَرَصَاتِهَا كَمَا نَمْنَمَ الْقِرْطَاسُ بِالْقَلَمِ الْحَبْرُ[٥١]

وقال البعيث:

فصارة فالقوين لا يا عرفته كما عرض الحبر الكتاب المرقما[٥٢]

وقال جرير:

بَيْنَ الْمُخَيْصِرِ فَالْعَزَّافِ مَنْزِلَةٌ كَالْوَحْيِ مِنْ عَهْدِ مُوسَى فِي الْقَرَاطِيسِ[٥٣]

---

(٤٩) *قصائد جاهلية نادرة*، ص١٧٩.

(٥٠) عبدالرحمن السهيلي، *الروض الأنف*، تحقيق عبدالرحمن الوكيل (القاهرة: دار النصر، ١٩٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، مج٥، ص١٧٨.

(٥١) *ديوان القتال الكلابي*، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م)، ص٤٩.

(٥٢) أبو عبدالله بن عبدالعزيز البكري، *معجم ما استعجم*، تحقيق مصطفى السقا (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م)، مج٣، ص٨٢٢.

(٥٣) *ديوان جرير*، ص٣٢١.

كما بين ذو الرمة كيف أن اليهود هم الذين كانوا يمارسون الكتابة، فقال:

كَأَنَّ قَرَاجَرْعَائِهَا رَجَّعَتْ بِهِ يَهُودِيَّةُ الْأَقْلَامِ وَحْيَ الرَّسَائِلِ[٥٤]

وقال الحسين بن مطير ذاكرا أن رهبان النصارى كانوا أيضا ممن مارس الكتابة في الجزيرة العربية:

وبالبرق أطلال كأن رسومها قراطيس رهبان تلوح سطورها[٥٥]

وقال جرير موضحا أن كتب الرهبان قديمة أيضا، فقال:

كَأَنَّ دِيَارَ الْحَيِّ مِنْ قِدَمِ الْبِلَى قَرَاطِيسُ رُهْبَانٍ أَحَالَتْ سُطُورُهَا[٥٦]

## الشعر المكتوب

ومن كل ذلك، لا نتبين استعمال الكتابة في الشعر في الجاهلية إلا خبرا يورده صاحب *الإكليل* عن كتابة أشعار في مقام إبراهيم قالها الحارث بن مضاض الجرهمي[٥٧] وربما اتهم أحد صاحب *الإكليل* موجها رأيه في هذه الكتابات التي يتحدث عنها الوجهة التي قالوا بها عن كتابة الأشعار بالعربية على قبور مرشد بن شداد وقضاعة بن مالك بن حمير،[٥٨] ولذلك علق ياقوت على ما قيل إنه لوح مكتوب فيه شعر بالعربية عند رأس شداد بن عاد: «هذه القصة مما قدمنا البراءة من صحتها وظننا أنها من أخبار القصاص المنمقة وأوضاعها المزوقة.»[٥٩] وأنها أخبار ملفقة ليس لها سند من الشعر الجاهلي الموثق، كما أنها ليس لها سند

---

(٥٤) *ديوان ذي الرمة*، تحقيق عبدالقدوس أبي صالح (بيروت: مؤسسة الإيمان، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، مج٢، ص١٣٣٤.

(٥٥) هبة الله بن علي بن حمزة ابن الشجري، *الحماسة الشجرية*، تحقيق عبدالمعين الملوحي وأسماء الحمصي (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٧٠م)، مج٢، ص٥٦٢.

(٥٦) *ديوان جرير*، ص٢٦٦.

(٥٧) الحسن بن أحمد الهمداني، *الإكليل*، تحقيق أنستاس ماري الكرملي (بيروت: مطبعة السريان الكاثوليكية، ١٩٣١م)، ص ص١٩٣-١٩٤.

(٥٨) الهمداني، *الإكليل*، ص ص١٧٥-١٧٦، ١٨١.

(٥٩) شهاب الدين أبوعبدالله ياقوت، معجم *البلدان* (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.)، مج١، إرم.

من الحقائق التاريخية التي بين أيدينا. وقد يقال الشيء نفسه عما ردده الشمشاطي صاحب *الأنوار ومحاسن الأشعار*: «وكان على سيف بسطام بن قيس الشيباني، واسم سيفه المحول مكتوباً:

نَصْـلٌ يَقِـدُّ الْـكَبْشَ وَهْـوَ مُدَجَّـجٌ عَضْبُ الْمَضَـارِبِ كَالشِّهَـابِ الْقَـاطِـعِ

وكان على سيف عتيبة بن الحارث بن شهاب مكتوباً:

فَفِـي أَيِّ حَالَاتِي شَهِـدْتُ فَإِنَّـنِي إِذَا الْحَـرْبُ شُبَّتْ عَنْ حَرِيمِـكَ دَافِـعُ
بِذِي شُطَبٍ صَافِي الْحَـدِيدِ كَأَنَّـهُ إِذَا هُزَّ بَرْقٌ فِي دُجَـى الْـلَّيْلِ لَامِـعُ

وعلى سيف عمرو بن معد يكرب القلزم مكتوباً:

ذَكَـرٌ عَلَى ذَكَـرٍ يَصُـولُ بِصَـارِمٍ عَضْـبٍ يَمَانٍ فِي يَمِـينِ يَمَانِ[٦٠]

ويمكن أن يضاف إلى كل ذلك كل ما راج عن تدوين النعمان بن المنذر لأشعار العرب[٦١] فهو خبر مهما قيل فيه، مصدره حماد الراوية الذي روى شعر عدي بن زيد رواية ولم يأت بأي دليل مكتوب من شعره. على الرغم من أرجحية الإشاعة عن كتابته لشعره، لو كان الشعر يكتب في ذلك الزمان.[٦٢]

أما موقف ابن سلام من رواية حماد، فواضح فهو إذ يثبت عدم معرفة العرب بالكتابة، ينكر بالتالي رواية حماد، أضف إلى ذلك طعنه الشديد عليه،[٦٣] وذلك على الرغم من قوله باحتفاظ النعمان بأشعار أهل بيته مكتوبة.

---

(٦٠) أبو الحسن بن محمد بن المطهر العدوي الشمشاطي، *الأنوار ومحاسن الأشعار*، تحقيق صالح مهدي العزاوي (بغداد: دار الحرية، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م)، ص٢٤.

(٦١) علي الجندي، *تاريخ الأدب العربي* (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤م)، ص ص١٤١-١٤٢.

(٦٢) الأصفهاني، *الأغاني*، مج٦، ص ص ٧٢-٧٤؛ مج٧، ص ص٦٥-٦٦؛ عبدالمتعال الصعيدي، *زعامة الشعر بين امرىء القيس وعدي بن زيد* (القاهرة: مطبعة المحمودية، ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م)، ص٩٦؛ نذير العظمة، *عدي بن زيد العبادي*، شخصيته وشعره (بيروت: دار مجلة شعر، ١٩٦٠م)، ص ص٩٧-١٠١.

(٦٣) محمد بن سلام الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، ص٢٣.

ويقاس عليه نحو قولهم: إن أباكرب تبع «... قال شعرا أودعه عند أهلها (أي مكة)، فكانوا يتوارثونه كابرا عن كابر إلى أن هاجر النبي ﷺ فأدوه إليه. ويقال كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب خالد بن زيد، وفيه:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ بَارِي النَّسَمْ
فَلَوْ مُدَّ عُمْرِي إِلَى عُمْرِهِ لَكُنْتُ وَزِيراً لَهُ، وَابْنَ عَمْ[٦٤]

فهذا كله أشبه بتلفيقات الهمداني وادعاءاته.

ومن ناحية أخرى، فإن ما روي من أنه «أصبح الناس يوما بمكة وعلى باب دار الندوة مكتوب:

أَلْهَى قُصَيًّا عَنِ الْمَجْدِ الْأَسَاطِيرُ وَرَشْوَةٌ مِثْلَ مَا تُرْشَى السَّفَاسِيرُ
وَأَكْلُهَا اللَّحْمَ بَحْتاً لَا خَلِيطَ لَهُ وَقَوْلُهَا: رَحَلَتْ عِيرٌ أَتَتْ عِيرُ»[٦٥]

يبقى مثار سؤال. إذ إنه يبدو أن مصدر الرواية الأصلي هو محمد بن إسحق الذي روى عنه السهيلي في *الروض الأنف* بيتا واحدا فقط. وذكر أن الكتابة على أستار الكعبة[٦٦] وهما هنا بيتان، ثم هي ثلاثة عند جامع الديوان[٦٧] فالخبر يحمل في طياته، إذن، التزيد والافتعال، وقد وضع أصلا لتبرير العداء بين قوم الشاعر وقصي، ولعل مما يجعلنا نميل أكثر إلى رفض كتابة الأبيات وإن يكن ابن الزبعرى قالها، أن عبدالله بن الزبعرى لم يذكر قط أنه من كتاب الوحي. على الرغم من الحاجة إلى مثله، ولم يرو قط أنه كان ممن مارس الكتابة، بل مما يؤكد أنه يسير سيرة غيره من الشعراء تشبيهه الأطلال بالكتابة عند اليهود، كما سوف نرى بعد قليل.

(٦٤) القرطبي، *الجامع*، مج٨، ج١٦، ص١٤٥، وانظر ص ص١٤٥-١٤٦.
(٦٥) ابن سلام، *طبقات*، ص ص١٩٦-١٩٧.
(٦٦) السهيلي، *الروض الأنف*، مج٢، ص ص٨٦-٨٧.
(٦٧) شعر *عبدالله بن الزبعرى*، ص٣٧. وقد أشار جامع شعره إلى ظاهرة النحل في الشعر المنسوب لابن الزبعرى، في ص٢٥ منه.

أما من حيث كتابة القصائد نفسها، فإننا لا نجد أي ذكر لذلك فيما بين أيدينا من مراجع. وهناك حالات أخرى عدا تلك الحالات، تؤكد استعمال الكتابة بالعربية من دون أن تحصرها في كتابة الشعر، مثل ذكر أن عدي بن زيد كان كاتب أبرويز ملك فارس بالعربية،(٦٨) وأن الحارث بن أبي شمَّر الغساني كان يقول لكاتبه المرقش - الذي يفترض أن قوله هذا يعني الكتابة بالعربية - : «إذ نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه، فافصل بينه وبين تبيعته من الألفاظ. فإنك إن مَذَقْتَ ألفاظك بغير ما يحسن أن يمذق، نفرت القلوب عن وعيها، وملته الأسماع، واستثقلته الرواة.»(٦٩)

وعلى الرغم مما أشيع عن ممارسة عدي للكتابة، فهو مثله مثل غيره. كان يتبع الخط التقليدي الذي سار عليه كل شعراء الجاهلية، فهو يقول مثلا:

مَا تَبِـينُ الْـعَـيْنُ مِنْ آيَاتِهَـا غَيْرَ نُؤْيٍ مِثْـلِ خَطٍّ بِالْـقَـلَمْ(٧٠)

فهذه المجاراة تدفعنا إلى تأكيد عمق الموروث عنده وأنه كان ينظم شفويا؛ أما مسألة استعماله للكتابة، فهي مسألة لا تزال غامضة، ونحسب أن كتابة الشعر لم تكن متيسرة لا له ولا لغيره في ذلك الزمان فالعباديون أنفسهم لم يحفظوا له شعرا مُدوَّنا، إنما كانوا يروونه رواية، ثم إنه على الرغم من ذلك حمل عليه شعر كثير.

كما يجب أن نتنبه إلى أسلوب هذه العبارة التي جاءت على لسان الحارث الغساني، فهو أسلوب يشبه لغة العصر العباسي ودواوين الرسائل المتأثرة بالبلاغة والمنطق. ومن جهة أخرى فقوله:

---

(٦٨) أبومحمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، *الشعر والشعراء*، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦م)، مج ١، ص٢٢٨.

(٦٩) أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، *كتاب الصناعتين*، تحقيق مفيد قميحة، ط٢ (بيروت: مطبعة العلوم، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ص٤٩٩. مذقت: اختلطت.

(٧٠) *ديوان عدي بن زيد العبادي*، تحقيق محمد جبار المعيبد (بغداد: دار الجمهورية، ١٩٦٥م)، ص٧٣.

لات هنا وليتني طرف الزج وأهلي بالشام ذات القرون(٧١)

يدل على أنه تابع للمناذرة وليس للغساسنة، وأنه ليتمنى هنا أن يكون من ضمن رعاياهم. ولعل هذا يدفعنا بالتالي إلى رفض أن يكون المرقش كاتبا أو يعرف الكتابة. إذ لم يذكر المرقش من ضمن كتاب المناذرة. أما الأبيات عن كتابته على رحله(٧٢) فتفصح عن مدلولها القصصي، إذ نجد هذه القصة مع المهلهل،(٧٣) ومع شعراء آخرين.(٧٤)

## قضية المعلقات

أما فيما يخص المعلقات فمجمل الآراء حولها تنحصر في أنها مشتقة إما من:

١ ـ عَلَّق: بمعنى حافظ عليها لأنها ذات قيمة في مكان محروز أو بمعنى نسخ.

وإما من:

٢ ـ عِلْق: بمعنى ثمين.

وإما من:

٣ ـ مُعَلَّقَة: كالمرأة المعلقة التي لا يدرى الموقف منها، وقد ورد المعنى في القرآن الكريم.(٧٥) ويقول محمد الخضر حسين، وهو ممن يرى أن الشعر الجاهلي كان قد كتب: «القدماء وأنصار القديم هم الذين أنكروا رواية تعليق هذه القصائد على الكعبة، ومنهم من لم يرض عن رواية تعليقها في الدفاتر أيضا، وقالوا: إنما سميت المعلقات لعلوقها بأذهان

---

(٧١) ابن الأنباري، *المفضليات*، ص٤٦٩.

(٧٢) ابن الأنباري، *المفضليات*، ص ص٤٥٨-٤٦٠.

(٧٣) ابن نباتة، *سرح العيون*، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم (القاهرة: المدني، ١٩٦٤م)، ص٩٩. ومما يخضع للقصص وعدم الإقناع الخبر عن أن الملك قيسبة بن كلثوم السكوني كتب بالمسند على رحله أبياتا منها:

بَلِّغَا كِنْدَةَ الْمُلُوكَ جَمِيعاً حَيْثُ سَارَتْ بِالْأَكْرَمِينَ الجِمَالُ

الأصفهاني، *الأغاني*، مج١٣، ص ص٤-٥.

(٧٤) تاج الدين أبونصر عبدالوهاب بن تقي الدين السبكي، *طبقات الشافعية الكبرى*، ط٢ (بيروت: دار المعرفة، د.ت.)، مج١، ص ص١٤٦-١٤٧.

(٧٥) James Robson, "The Meaning of the Title Al-Muallaqat", *Journal of The Royal Asiatic Society*, pt.1 (January, 1936), 83-85.

صغارهم وكبارهم ومرؤوسيهم ورؤسائهم، وذلك لشدة عنايتهم لها، ولعل هذا أحسن وجه في تسميتها معلقات.»[٧٦]

كما يمكن أن نضع في الاعتبار موقف عبدالمنعم خضر الزبيدي وجدله حول فكرة أن المعلقات كانت مكتوبة... ثم رفضه تلك الفكرة مستندا إلى مبدأ الارتجال وعدم شيوع الكتابة في العصر الجاهلي مثلما هي الفكرة الرائجة عن تنقيح الحوليات ومحاجته الطويلة حول ذلك، فمما قال: «وحتى لو صح أن زهيرا والحطيئة كانا ينقحان شعرهما، ويعيدان فيه النظر، وهو أمر لا دليل عليه في هذا الشعر، ولا سبيل إلى إثباته، إذ لا يختلف شعرهما في شيء عن شعر غيرهما من فحول العصر الجاهلي، فإن ذلك لا ينفي أن عامة الشعر الجاهلي كانت قد نظمت ارتجالا أو في ظروف تشبه الارتجال.»[٧٧] كما قال: «من هذا نرى أن فن الشاعر الجاهلي لا يمكن أن يفهم صحيحا إلا على أنه فن شاعر أمي لا يعرف للكلمات المنفردة وجودا مستقلا ولا يفصل بين معاني الألفاظ وجرسها في الكلام.»[٧٨]

وكذلك موقف زويتلر الذي يقول رافضا أن تكون القصيدة تدوينا لنص الشاعر ipis-sima verba ومستشهداً بتعدد روايات القصيدة على شفاهية النص القديم: «لقد نظمت تلك القصائد من غير استعانة بالكتابة ورويت لبعض الزمن بعد ذلك من غير المحافظة على نص مثالي، حتى تلك القصائد التي قيل عنها إنها قيلت بعد تدبر وإعمال روية (كحوليات زهير) مما يعني أنها ازدهرت في وضع الرواية الشفاهية كالتي نجدها أينما كان الشعر الشفاهي ممارسة حية.»[٧٩]

(٧٦) محمد الخضر حسين، *نقض كتاب في الشعر الجاهلي* (القاهرة: مطبعة السلفية، ١٣٤٥هـ)، ص ص١٧٨-١٨٠.

(٧٧) عبدالمنعم خضر الزبيدي، *مقدمة لدراسة الشعر الجاهلي* (ليبيا: مطبعة الثورة، ١٩٨٠م)، ص٧٠.

(٧٨) الزبيدي، مقدمة، ص٨٠. وقد جاء الزبيدي بتفصيل دقيق لمعنى الأمية كما أكد على مفهوم الارتجال واستشهد بكثير من الشواهد على المعاودة والتكرار، وبين مفهوم الكتابة في العصر الجاهلي، انظر ص ص٤٣-٨١.

(٧٩) M. Zwettler, *The Oral Tradition of Classical Arabic Poetry* (Ohio: Ohio Univ. Press, 1978), pp. 220-21.

فهذه المواقف الحديثة التي انطلقت من نظرية الرواية الشفوية للشعر الجاهلي دعم آخر جديد لما نذهب إليه هنا.

فإذا كان التنقيح والمعاودة تعني الشعر المصقول المجود، وليس الشعر المعتمد على الشعر المكتوب وإعادة النظر إليه كما ذهب إليه بعض الباحثين عند شعراء من أمثال زهير أو من أسموهم بمدرسة الصنعة، فما بالنا لا نذهب هذا المذهب مع عينية أبي ذؤيب مثلا[٨٠] ومنها نستنتج أن الرجل أحكم فنه إحكاما، ولا يعقل أنه عاود تنقيحها لطبيعة الموضوع الذي قصره على رثاء أبنائه والتمثيل لموتهم بالحمار الوحشي والثور الوحشي. وهو في

---

— وعلى الرغم من ذلك فزويتلر لا يتشبث بنفي فكرة كتابة الشعر الجاهلي:

See pp. 19, 23, 37, n.37, 96n, 117, 174 n 15, 178 n.60.

وهو موقف ضعيف إزاء إصراره المتناهي على مبدأ الرواية الشفوية خاصة أنه تبنى رأي باري في كون الإلياذة والأوديسة عملين من أعمال النظم الشفوي الخاص. وقد طبق كل آراء باري على القصيدة العربية حتى العصر الأموي وتردد هنا في مسايرته. ثم هو يؤاخذ بلاو لأنه يوافق غيره من الباحثين في افتراض كون الرواة العرب المتأخرين الذين تمكنوا من الاحتفاظ بالحركات الإعرابية ـ وهي أهم مظهر من مظاهر التعليم في رأيه ـ عاشوا في مرحلة نظم شعري مكتوب مثل أسلافهم، كما يؤاخذه لأنه لم يتنبه إلى الفرق بين النظم الشفوي والنظم المعتمد على الكتابة؛ Zwettler, p. 184, n. 121.

وقد كان الأولى به إزاء هذا الإصرار والتمسك بحفظ الشعر رواية أن يتخذ موقفا بينا لا تذبذب فيه لأن من يذهب إلى القول بكتابة الشعر يتخذ من عدي بن زيد وغيره، وكذلك قصة كتابة النعمان للأشعار التي مدح بها أهل بيته دليلا على ذلك. ولكن زويتلر في تذبذبه هذا ـ ويبدو أنه خاضع للآراء الرائجة عن تدوين الشعر الجاهلي وكتابته ـ يظل حائرا فيتساءل: ما الشكل الذي استعمل لكتابة اللغة العربية في الحيرة، وسورية والجزيرة الفراتية، وهي المراكز الثقافية العربية، بل حتى في نجران أيضا؟ وهل كان شكلا مختلفا كل الاختلاف عن اللغة العربية استعمله النصارى وطوروه؟ Zwettler, p. 188 n. 155, see also pp. 37 n. 40, 186 n. 150. وانظر حول شفوية الشعر الجاهلي: جميز مونرو، *النظم الشفوي في الشعر الجاهلي*، ترجمة فضل بن عمار العماري، ط ١ (الرياض: دار الأصالة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص ص٣٠-٥٠.

(٨٠) السكري، شرح *أشعار الهذليين*، مج ١، ص ص١-٤١.

صوره ودقته يصل إلى مستوى براعة زهير ولبيد في معلقتيهما. وهناك قصيدة صخر الغي التي يقول فيها:

إِنِّي بِدَهْمَاءَ عَزَّ مَا أَجِدُ عَاوَدَنِي مِنْ حِبَابِهَا الزُّؤُدُ[٨١]

فهذه القصيدة على الرغم من غنائيتها وجاذبيتها محكمة الصنعة بارعة التصوير، وهي موجهة توجيها دقيقا بحيث لا يشك أحد في أن قائلها كان يعمل تفكيره وعقله في قولها. ومع ذلك فلم يقل أحد إن صخرا قد عاود تنقيحها أو عالجها أو جعلها حولية.

## مفهوم الكتاب

فإذا تجاوزنا ذلك، فسنجد أن الشاعر الجاهلي كان يورد ذكر الكتابة أو أدواتها أو لفظة «الكتاب» . . . الخ، من غير أن نتبين ممارسته الحقة للكتابة أو استعانته بسواه لكتابة شعره. ولعلنا نجد مصداق ذلك في القول الذي يستدل به على أنه شاهد على وجود كِتاب عند الجاهليين وهو قول معقل بن خويلد:

وَإِنِّي كَمَا قَالَ مُمْلِي الْكِتَا بِ فِي الرَّقِّ إِذْ خَطَّهُ الْكَاتِبُ

يَرَى الشَّاهِدُ الْحَاضِرُ الْمُطْمَئِنُّ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا يَرَى الْغَائِبُ[٨٢]

فهو يذكر الكتابة فعلا، ولكنه لا يحددها، وهو إنما يذكر قولا ولا يذكر كتابة شعر كما أنه لا يعني كتابا بعينه، إذ لا يتصور أن يحتفظ بكتاب من رق في فترة جاهلية معروفة أوضاعها الاجتماعية، فهو إذن رق واحد وليس كتابا كما قد نفهم. وعلى هذ النحو يمكن أن نوجه قول بشر بن أبي خازم:

وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِي تَمِيمٍ أَحَقُّ الْخَيْلِ بِالرَّكْضِ الْمُعَارُ[٨٣]

الذي يذهب بعض الباحثين إلى أنه يعني (الكِتاب) بعينه وأنه كانت هناك كتب لقريش، وثقيف وتميم،[٨٤] فهو لا يعدو المعنى المجازي للكتاب، أي الأخبار والأقوال الشفوية. كما سيتضح لنا بعد حين. وقول معقل بن خويلد الهذلي أيضا:

(٨١) السكري، *شرح أشعار الهذليين*، ص ص٢٥٤-٢٦١.

(٨٢) السكري، *شرح أشعار الهذليين*، مج١، ص٣٩٢.

(٨٣) ابن الأنباري، *المفضليات*، ص٦٧٦.

(٨٤) الجندي، *تاريخ الأدب*، ص ص١٤١-١٤٢.

وَمَـا يَبْـقَـى عَلَى الْمَـأْثُـورِ شَيْءٌ    فَيَا عَجَـبـاً لِمَصْـدَرَةِ الْـكِـتَـابِ[٨٥]

يشير إلى قدم الكتابة وصمودها أمام عوادي الزمن. أي الصورة القديمة نفسها.

## الخـط العربـي

أما لماذا لا نتصور أن الشاعر الجاهلي كان يكتب أو أن الشعر نفسه كان مكتوبا، فإن النظر في حالة الخط العربي قبيل الإسلام كما هو واضح في نقش حوران ونقش حجر[٨٦] زبد ومن الجدول الذي أعدته نابيا آبوت عن رسم الحروف العربية[٨٧] ليس في الفترة الجاهلية وصدر الإسلام فحسب بل حتى في العصر الأموي، وكما هو واضح أيضا في صور النقوش الإسلامية[٨٨] هو أبلغ دليل على ذلك حتى ليقول محمد الفعر عن نقش عبدالرحمن الحجازي المؤرخ بعام ٣١هـ: «يلاحظ على هذا النقش بداوته إذ تعوزه مهارة الكاتب والنقاش على حد سواء، كما أن الكاتب لم يلتزم بمعدل معين لعدد الكلمات بين سطر وآخر، كما أنه لم يلتزم بحجم معين للكلمات في السطر الواحد بل إنه لم يلتزم أيضا بحجم معين في حروف الكلمة الواحدة، كما أن الأسطر يعوزها التناسق بين سطر وآخر.»[٨٩]

---

(٨٥) السكري، شرح *أشعار الهذليين*، مج ١، ص٣٨٨.

(٨٦) شاكـر حسن آل سعيد، «الخط العـربي جماليا وحضـاريا،» *المورد*، م١٥، ع٤ (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ص ص٦٢-٦٣.

(٨٧) Nabia Abbott. *The Rise of the North Arabic Script and its Kura'anic Development* (Chicago: University of Chicago Press, 1939), Appendix.

(٨٨) Abbott, appendix . وانـظر صورة الـرسالة التي بعث بها النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوي حاكم البحرين. وقد خلت من الإعجام، وشغلت مفرداتها ـ على الرغم من قلتها عشرة سطور. ومع ذلك فهناك جدل حول صحتها. ومثلها كذلك رسالته ﷺ إلى المقوقس حاكم مصر.

M. Hamidullah, "Some Inscriptions of Medinah of the Early Years of Hijrah," *Islamic Culture*, 13, No. 4 (October 1939), 428-34.

(٨٩) محمد فهد عبدالله الفعر، *تطور الكتابات والنقوش في الحجاز*، ط١ (جدة: مطبعة شركة النصر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م)، ص١٦٤.

أضف إلى ذلك ما يكشفه الإملاء القرآني من نواقص scripto defectiva من مثل تمثيل الهمزة، واستعمال رموز لحركات المد الطويلة وبالذات عدم إثبات رمز الفتحة الطويلة، ورسم التنوين . . . الخ.[٩٠]

بل إن الانحرافات اللغوية deviations والأخطاء الإملائية pseudocorrections التي ظهرت في كتابات النصارى المتأخرين تدفع إلى الافتراض بأنه «لم يكن لدى الكتاب النصارى الأوائل قبل تدوين النحو العربي في الفترة المتأخرة معرفة دقيقة بتدوين أشعارهم أو نظمها كتابة.»[٩١]

ونجد تصوير ذلك كله في قول ابن خلدون عن كتابة القرآن الكريم، مشيرا إلى حالة الخط في العواصم الحضرية العربية ومن بينها مكة والمدينة. «كان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة، ولا إلى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع، وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غير مستحكمة في الإجادة، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها.»[٩٢]

ويجب ألا يغرب عن بالنا أن لغة الكتابة الرسمية في بلاطات المناذرة والغساسنة لم تكن اللغة العربية، بل كانت اللغة السريانية، فقد اتفق المؤرخون جميعهم على أن المناذرة والغساسنة كانوا يتكلمون العربية ويكتبون الآرامية (السريانية) في مراسلاتهم.[٩٣] وهذا ما يجعلنا نعيد النظر كلية في الروايات التي تحاول إثبات كتابة الشعر، سواء كان ذلك بالنسبة لشاعر نصراني مثل عدي بن زيد أم كان ذلك بالنسبة للمناذرة أنفسهم.

(٩٠) الحمد، *رسم المصحف*، ص ص١٤٩، ٢٠٦ - ٢٢٢، ٢٦٤-٢٧٦، ٢٧٩-٣٤٩، ٣٥١-٤٤٢، ٤٨٨، ٦٨٨، ٦٧١، ٦٧٤، ٦٨٥، ٦٩١، ٧٢٠-٧٢٤.

(٩١) Zwettler, p. 188, n. 155

(٩٢) عبدالرحمن بن خلدون، *المقدمة*، ط٤ (بيروت: دار القلم، ١٩٨١م)، ص٤١٩.

(٩٣) محمد مبروك نافع، *عصر ما قبل الرسول*، ط٣ (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٥٢م)، ص١٠٩؛ فيليب حتى، *تاريخ العرب المطول*، ترجمة إدوارد جرجي وجبرائيل جبور، ط٤ (بيروت: دار الكشاف، ١٩٦٥م)، مج١، ص١١٣.

## استمرار النمط القديم

ومما يؤكد القول بعدم استخدام الكتابة في الشعر أنه حتى الشعراء الإسلاميون والأمويون الذين كانت غالبيتهم من البدو، لم يمارسوا كتابة الشعر وإنما كانوا يقولونه شفويا، إضافة إلى تلك الصور التي كانت تعكس صورة الكتابة في أذهانهم عند الأمم الأخرى كما كانت تنعكس أمام أحفادهم، إذ إننا نجدهم يعيدون الصور التي ذكرناها عند بدء النقاش كما فعل أحفادهم أيضا. حيث نجد ذلك عند النابغة الشيباني مثلا، وعند جميل بثينة، والفرزدق وجرير. فمن صور النابغة الشيباني قوله:

فَهَيَّجَ دَمْعِي رَسْمُ دَارٍ كَأَنَّهُ وَحِيُّ السِّلَامِ فَالدُّمُوعُ بَوَادِرُ[٩٤]

وقوله:

أَبْلَى مَعَارِفَ أَطْلَالٍ وَغَيَّرَهَا فَكُلُّ آيَاتِهَا مَمْحُوَّةٌ طُمُسُ
نُؤْيٌ وسُفْعٌ وَمَشْجُوجٌ وَمُلْتَبِدُ كَأَنَّهَا كُتُبٌ عَادِيَّةٌ دُرُسُ[٩٥]

وقال العرجي:

لِمَنْ طَلَلٌ بِالنَّعْفِ نَعْفِ وَقِيرِ يُشَبِّهُ مَغْنَاهُ كِتَابَ زَبُورِ[٩٦]

وقال جميل:

قَفْرًا تَلُوحُ بِذِي اللُّجَيْنِ كَأَنَّهَا أَنْضَاءُ رَسْمٍ أَوْ سُطُورِ كِتَابِ[٩٧]

وقال الأخطل مشبها آثار الديار بثياب يمانية بالية ذات خطوط، كما يشبهها بكتابة في كتب قديمة مهملة:

---

(٩٤) ديوان *النابغة الشيباني*، ص١٦٠.

(٩٥) ديوان *النابغة الشيباني*، ص٢٤.

(٩٦) ديوان *العرجي*، تحقيق خضر الطائي ورشيد العبدي، ط١ (بغداد: مطبعة الشركة الإسلامية، ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م)، ص٧٥.

(٩٧) ديوان *جميل*، شرح إبراهيم جزيني، ط١ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ص١٧.

فَهْــيَ كَسَــحْــقِ الْـيَمَانِي بَعْــدَ جِدَّتِــهِ أَوْ دَارِسِ الْـوَحْيِ مِن مَرْفُوضَةِ الْكُتُبِ[٩٨]
وقال أيضا في صورة أخرى:
لِخَوْلَــةَ بِالــدُّومِــيِّ رَسْــمٌ كَأَنَّــهُ عَنِ الْحَوْلِ، صُحْفٌ عَادَ فِيهِنَّ كَاتِبُ[٩٩]
كما قال ذو الرمة مشبها آثار الناس في سواد الأطلال بالكتب، وهو تأكيد على استمرار التقليد لديه:
وَدِمْــنَــةٍ هَيَّجَــتْ شَوْقِــي مَعَــالِمُهَــا كَأَنَّهَا بِالْهِـدَمْـلاتِ الــرَّوَاسِــيمُ

والـرواسيم كتب كانت للجاهلية[١٠٠] ونحن نفهم هذه الكتب ـ في إطار التشبيه بالقدم حسب المنظور العام للكتابة ـ على أنها كتب عند الأمم المشار إليها هنا وهي على العموم لا تخرج عن حد تشبيه الدمن بالكتاب مثل قوله ذاكرا «الضبار» وهي الكتب:
أَقُــولُ لِنَــفْسِي وَاقِــفًــا عِنْــدَ مُشْرِفٍ عَلَى عَرَصَــاتٍ كَالضُّبَــارِ النَّــوَاطِقِ[١٠١]
وقال الفرزدق:
عَرَفْــتُ الْمَــنَــازِلَ مِنْ مَهْــدَدِ كَوَحْيِ الــزُّبُــورِ لَدَى الْـغَــرْقَــدِ[١٠٢]
أما قول الشاعر الكاتب الكميت بن زيد (ت ١٢٦هـ):
حَتَّــى كَأَنَّ عِرَاصَ الــدَّارِ أَرْدِيَةٌ مِنَ الــتَّجَــاوِيزِ، أَوْ كُرَاسُ أَسْــطَارِ[١٠٣]

---

(٩٨) شعر *الأخطل*، تحقيق فخر الدين قباوة، ط١ (حلب: مطبعة الأصيل، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، مج١، ص٢٤١.

(٩٩) شعر *الأخطل*، مج٢، ص٧٦٣.

(١٠٠) إسماعيل بن حماد الجوهري، *الصحاح*، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ط٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، رسم.

(١٠١) الزبيدي، *تاج العروس*، ضبر؛ وانظر: *ديوان ذي الرمة*، مج١، ص٢٤٧.

(١٠٢) *ديوان الفرزدق*، تحقيق كرم البستاني، ط١ (بيروت: دار صادر، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م)، مج١، ص١٧٢.

(١٠٣) شعر *الكميت بن زيد الأسدي*، تحقيق داود سلوم (النجف: مطبعة النعمان، ١٩٦٩م)، مج١، ص١٨١.

فهو وإن كان يؤكد حقا الاتباع وامتداد ذلك المأثور، فيجب أن ننتبه إلى القفزة النوعية التي حدثت في الخط العربي والإمكانات المتاحة لدى شاعر في القرن الثاني الهجري، مما لم يكن متيسرا لأولئك الشعراء القدامى، وعدي بن زيد من ضمنهم.

وقد وقع بعض اللبس في فهم بعض الإشارات في شعر بعض الشعراء الإسلاميين ومن ذلك قول ابن أحمر:

وَلِلشَّيْخِ تَبْكِيهِ رُسُومٌ كَأَنَّهَا    تَرَاوَحَهَا الْعَصْرَيْنِ أَرْوَاحُ مَنْدَدِ
تَمَاثِيلُ قِرْقَاسٍ عَلَى هَبْهَبِيَّةٍ    نَضَا الْكُورُ عَنْ لَحْمٍ لَهَا مُتَخَدِّدِ

وذلك حسبما ذهب إليه محقق الديوان من أن التماثيل بمعنى الكتب،(١٠٤) وقد يقال من جهة أخرى إن التماثيل لا تخرج عن مدلولها الحقيقي وهو الرسوم والتصاوير على جلود تزين الرحل. ولا تخرج هذه الصورة عن تلك التي رسمها الطرماح في قوله يصف الرحل:

بِذِي ذِئْبٍ يَنُوسُ بِجَانِبَيْهِ    عَشَاكِلُ مِنْ أَكَالِيلِ الْعُهُونِ

فهو يقول عن أحناء الرحل من مقدمه بأن ما علق عليه من عهن أو صوف أو زينة يتذبذب في الهواء، والعهن هو الصوف المصبوغ ألوانا يعلق على جانبي الرحل والهودج للزينة،(١٠٥) وتجتمع اللفظتان «هبهبية» وهي الناقة التي تتحرك بسرعة كالريح الهبوب، في

(١٠٤) شعر عمرو بن أحمر الباهلي، تحقيق حسين عطوان (دمشق: مطبعة مجمع اللغة العربية، د.ت.)، ص٥٠.

(١٠٥) ديوان الطرماح بن حكيم، تحقيق عزة حسن (دمشق: مطبعة مديرية إحياء التراث القديم، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ص٥٣٠. ولعل من ذلك قول علقمة:

عَقْماً وَرَقْماً يَكَادُ الطَّيْرُ يَتْبَعُهُ    كَأَنَّهُ مِنْ دَمِ الْأَجْوَافِ مَدْمُومُ

الزبيدي، *التاج*، عقم. وقول زهير:

عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَكِلَّةٍ    وِرَادٍ حَوَاشِيهَا مُشَاكِهَةِ الدَّمِ

شرح شعر زهير، ص١٩. ومثلهما أيضا قول الآخر مشيرا إلى الزخارف على الهودج:

تَرَى الْوَدْعَ فِيهَا وَالرَّجَائِزَ زِينَةً    بِأَعْنَاقِهَا مَعْقُودَةً كَالْعَثَاكِلِ

الزبيدي، *التاج*، عثكل. وعلى العموم فمن معاني القرطاس الأديم؛ ابن منظور، *اللسان*، قرطس.

## كبار الشعراء والكتابة

ثم إنه لما تأخر الزمن قليلا، وجدنا ذكرا أكثر صراحة لاستعمال الكتابة في الشعر، فهذا الفرزدق الذي كان المفضل أبو شقفل راويته، وفي الوقت نفسه، كاتبه يخلو به ليلا ليكتب أشعاره[١١٧] وكان راويته ابن مَتَوْيْه (ومن اسمه يتضح أنه غير عربي) يكتب شعره أيضا[١١٨] ويثبت نظم الفرزدق لقصيدته الفائية:

عزفت أعشاش وما كنت تعزف وأنكرت من حدراء ما كنت تعرف

التي تبلغ ١١٣ بيتا في جلسة واحدة بعد طلوع الفجر،[١١٩] أن النظم الشفاهي وليس النظم مع الاستعانة بآلات الكتابة هو أساس القول الشعري حتى ذلك العهد. فقد كان للفرزدق راويتان آخران من بني ربيعة بن مالك ومن بني تميم أحدهما يقال له: عبيد، ولعلهما كانا يرويان شعره حفظا.[١٢٠]

كما يثبت نظم جرير لقصيدته الدامغة طريقة نظم الشعر وكتابته في هذا العصر أيضا حيث يروى أن جريرا أقبل على راويته الحسين فقال: «زد في دهن سراجك الليلة، وأعدد ألواحا ودواة،» وقد قال ٨٠ بيتا من هذه القصيدة البالغة ١١٢ بيتا في تلك الليلة.[١٢١] ويثبت خالد بن كلثوم الكلبي أهمية هذين الشاعرين العملاقين فيقول: مررت بالفرزدق وقد كنت دونت من شعره وشعر جرير... فقال: يا خالد... تكتب نقائضها أو تحفظها

---

(١١٧) ديوان *الفرزدق*، تحقيق كرم البستاني (بيروت: دار صادر، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)، مج١، ص٢٩٤.

(١١٨) أبو عبيدة معمر بن المثنى، *نقائض جرير والفرزدق*، تحقيق: أ. بيفان (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٥م)، مج٢، ص٩٠٨. وانظر خبر كتابته أبياتا أخرى له، *ديوان الفرزدق*، مج١، ص١٦١. وانظر كذلك خبر كتابته أبياتا له أرسلها إلى سعيد بن الوليد الأبرش، الأصفهاني، *الأغاني*، مج٢١، ص٣٥٩.

(١١٩) أبو عبيدة، *نقائض*، مج٢، ص٥٤٧.

(١٢٠) أبو عبيدة، *نقائض*، مج٢، ص١٠٤٩؛ وانظر: *ديوان جرير*، ص ص٦٤-٨٠.

(١٢١) أبو عبيدة، *نقائض*، مج١، ص ص٤٣٠-٤٣٢؛ وانظر: *ديوان جرير*، ص ص٤٧٢-٤٧٧. والقصيدة ٧٢ بيتا.

وتنشدنيها، فقلت: أفعل، فلزمته شهراً حتى حفظت نقائضها وأنشدته إياها.»(١٢٢)
وهذا أبو عمرو بن العلاء يقول: كنت قاعدا عند جرير وهو يملي:
وَدِّعْ أُمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَحِيلُ إِنَّ الوَدَاعَ لِمَنْ تُحِبُّ قَلِيلُ
ثم يضيف قائلاً: «فمرت به جنازة، فترك الإنشاد.»(١٢٣)

ثم هؤلاء فتيان من بني عدي يحيطون بالشاعر عمرو بن لجأ فيكتبون فخره بالرباب،(١٢٤) وذو الرمة يقول لعيسى بن عمر: «اكتب شعري، فالكتاب أعجب إليّ من الحفظ. إن الأعرابي لينسى الكلمة قد سهرت في طلبها ليلة فيضع موضعها كلمة في وزنها لا تساويها.»(١٢٥)

أدرك ذو الرمة كما أدرك جرير، فيما بعد، أهمية الكتابة، فحرصا على التدوين. ومن ناحية أخرى، فإن هاتين الحالتين: حالة ذي الرمة وحالة جرير يثبتان أمية شاعرين عاشا في فترة أخذت فيها الكتابة في الانتشار ووصل الشعر على يديهما وفي زمنهما إلى درجة عالية من الإحكام والتفنن، ولعلنا نستنتج من ذلك أن استعمال الكتابة لتدوين الشعر في هذه الفترة يثبت من طرف آخر استبعاد أن يكون الشعر الجاهلي قد دون في زمانه.

وهكذا فربما ذهب بنا الظن إلى أن حال الكتابة عند أسلاف هؤلاء هو الحال نفسه عند أحفادهم، أي إنهم ينقلون تراكيب وصورا وتعابير كانت شائعة عند من قبلهم، وهو ما نبهنا بتراجيك إليه في حديثه عن خلود صور الكتابة عند بدو الشمال في العصور اللاحقة على الممالك اليمنية.

---

(١٢٢) الأصفهاني، *الأغاني*، مج ٢١، ص٣٢١.

(١٢٣) ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، مج ١، ص٤٦٦.

(١٢٤) أبو عبيدة، *نقائض*، مج ٢، ص٩٠٨.

(١٢٥) أبو العباس أحمد القلقشندي، *صبح الأعشى* (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م)، مج ١، ص٣٦. وانظر الأبيات العشرة التي قالها المقنع الكندي في الخط وهو يمدح الوليد بن يزيد؛ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، *كتاب الحيوان*، تحقيق محمد عبدالسلام هارون (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٨م)، مج ١، ص ص٦٥ ـ ٦٦.

## الموقف من معرفة ذي الرمة بالكتابة

وإذا كان بعض الباحثين قد أثبت معرفة ذي الرمة الكتابة بناء على بعض الروايات التي أوردوها،(١٢٦) فإننا نرى أن هذه الروايات ليست قاطعة في إثبات تلك الفكرة، وإن كنا نتبين منها شيئا مهما جدا، وهو أن التعليم لم يقتصر على الحاضرة، بل ابتدأ يزحف على البادية، ومازلنا ندرج ذا الرمة ضمن الشعراء الأميين من أبناء قبيلة تميم، فجرير أمي، والفرزدق أمي، وذو الرمة أمي كذلك. وتبين الحادثة التي رواها القالي الجانبين السابقين كليهما: الأمية والتعليم في البادية، يقول: «قيل لذي الرمة: من أين عرفت الميم لولا صدف من سنك إلى تعليم أولاد الأعراب في أكتاف الإبل؟ فقال: والله ما عرفت الميم إلا أني قدمت من البادية إلى الريف فرأيت الصبيان وهم يجوزون بالفجرم في الأوق، فوقفت حيالهم أنظر إليهم فقال غلام من الغلمة: قد أزقتم هذه الأوقة فجعلتموها كالميم، فقام غلام من الغلمة فوضع منجمة في الأوقة فنجنجة فأفقهقها، فعلمت أن الميم شيء ضيق فشبهت عين ناقتي به وقد اسلهمت وأعيت.»(١٢٧)

أما ما رواه عيسى بن عمر مما يتكأ عليه دليلا على معرفة ذي الرمة بالكتابة، وهو يقول: ارفع هذا الحرف: فقلت له: أتكتب، فقال بيده على فمه، أي: اكتم علي، فإنه عندنا عيب.» وقول الصولي: «قرأ حماد الراوية على ذي الرمة شعره، فقال: تراه قد ترك في الخط لاما ـ فقال ذو الرمة: اكتب لاما. فقال حماد: وإنك لتكتب؟ قال: اكتم علي، فإنه كان يأتي باديتنا خطاط فعلمنا الحروف تخطيطا في الرمال في الليالي المقمرة، فاستحسنتها فثبتت في قلبي ولم تخطها يدي.»(١٢٨)

---

(١٢٦) ناصرالدين الأسد (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢م)، ص ص١١٧ـ١١٨؛ يوسف خليف، *ذو الرمة شاعر الحب والصحراء* (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١م)، ص ص٢٤ـ٢٥.

(١٢٧) القالي، *الأمالي*، مج٢، ص٧. الفِجرم: الجَوز؛ الأوقة: الحفرة؛ أزَّقتم: ضيقتم؛ نَجْنَجَه: حركه؛ أفقها: ملأها؛ المِنجَم: العَقِب؛ اسلهمَّت: تغيرت.

(١٢٨) أبوبكر محمد بن يحيى الصولي، *أدب الكتاب*، تصحيح محمد بهجة الأثري (القاهرة: السلفية، ١٣٤١هـ)، ص٦٢.

فنحن لا نتبين منهما أنه كان يكتب، فالعبارتان تؤكدان نظرة الأعراب إلى الكتابة، كما تؤكدان أمية ذي الرمة، وأن صورة هذه الحروف هي التي انطبعت في ذهنه ولم يمارسها بنفسه، فلقد ختم العبارة الثانية بقوله: «ولم تخطهما يدي.»

إذن فذو الرمة ينقل صورة ارتسمت في ذهنه عن الكتابة، ولم يمارسها. وما تشبيهه ذاك لعين الناقة باستدارة الميم على ما فيه من بداوة وسذاجة، إلا كتشبيهه لأنوف الطير بحركة رؤوس الأقلام، وهي صورة أرقى ذوقا من تلك حيث يقول:

كَأَنَّ أُنُوفَ الطَّيْرِ فِي عَرَصَاتِهَا خَرَاطِيمُ أَقْلَامٍ تَخُطُّ وَتُعْجِمُ(١٢٩)

ومثل ذلك يمكن أن يقال عن قول أبي النجم وهو يصور اضطرابه في مشيته بمثل كتابة «لام ألف»:

أَقْبَلْتُ مِنْ عِنْدِ زِيَادٍ كَالْخَرِفْ تَخُطُّ رِجْلَايَ بِخَطٍّ مُخْتَلِفْ
وَتَكْتُبَانِ فِي الطَّرِيقِ لَامْ أَلِفْ(١٣٠)

إذ يجب ألا يدفعنا إلى القول إنه كان يمارس الكتابة حقا، ذلك أن صورة الكتابة مازالت مشوَّهة في ذهنه. وما معرفة أبي النجم باللام ألف إلا مثل معرفة جرير والراعي بالكاف والميم اللتين مرتا بنا، والفرق هو أن أبا النجم قد يكون نقل الصورة من مشاهداته اليومية في هذا العصر الذي ذاعت فيه الكتابة، أما جرير وغيره فكانوا متأثرين بالتقليد الماضي. وهو أمر يجب أن نضعه في الاعتبار لاختلاف طريقة شعراء القصيدة عن شعراء الرجز.

ونحن إذ نرفض أن يكون ذو الرمة أو أبو النجم قد مارسا الكتابة، نرفض أيضا أن يكون النبي ﷺ كان يعرفها. فالنبي ﷺ أمي تشهد على ذلك سيرته ورسالته. ولنا أن نفسر ما رُوي عن توجيهاته لبعض الكتاب، بأنها - إن صحت - ملاحظات عابرة عن صور انطبعت في الذهن، وليست حقيقة.(١٣١)

(١٢٩) *ديوان ذي الرمة*، مج٣، ص١٥٨٠.
(١٣٠) الصولي، *أدب الكتاب*، ص٩٢.
(١٣١) نصر الوقائي الهوريني، *المطالع النصرية* (القاهرة: الأميرية، ١٢٧٥هـ)، ص ص١٤ - ١٦.
وانظر مثل هذا الزعم في: Zwettler, p. 119.

## المشافهة أساس الرواية

فإذا خلصنا بعد كلّ ذلك إلى حقيقة كون كتابة الشعر غير واردة حتى فترة متأخرة من الإسلام، أفليس من السهل علينا أن نوجه البيتين التاليين حسب المعطيات التي تحدثنا عنها فيما مضى. يقول:

أَبْلِغْ كَبِيراً عَنِّي مُغَلْغَلَةً  تَبْرُقُ فِيهَا صَحَائِفُ جُدُدُ
فِيهَا كِتَابُ ذَبْرٌ لِمُقْتَرِيءٍ  يَعْرِفُهُ أَلْبُهُمْ وَمَنْ حَشَدُوا

فإننا سنجد أن أبلغ تعني بلوغ الشيء بمشقة وجهد، فناقل هذا الخبر الذي يحمله صخر إلى بني خناعة لن يكون يسيرا عليه الإفضاء بها يحمله إليهم. إنه سيتردد وسيعاني من إيصال الخبر. وقد قال تعالى في سورة النحل آية ٧: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ وهذا يدل على أن الجاهليين حينما يستخدمون الجملة «أبلغ» كانوا يقصدون منها تلك المعاني كلها. وقد جاء اسم المفعول «مغلغلة» ليدل على أن ناقل الخبر لن يصل إلى موضع الرسالة إلا بعد أن يجتاز صعوبات جمة. إنها تتغلغل، أي تمر في طريقها بأكبر الصعاب وأشدها، ذلك لأن ما تحمله ليس سارا، إنها تحمل «الغل» وهو عاطفة شريرة ملؤها الحقد والكراهية والبغضاء. ثم تأتي الحال «تبرق فيها صحائف جدد،» التي يظن كثير من الباحثين أن الشعراء الجاهليين حينما يذكرون هذه الحالة إنما يشيرون إلى الكتابة. حقا يشير الجاهلي إلى الكتابة، ولكنه هل يستخدمها في مراسلاته وخطاباته؟ إن هذه الإشارات قد تدعم بعض وجهات النظر. ويبدو أن الشاعر الجاهلي كان يستخدم هذا الأسلوب مجازا. إنه يصف الوضع الذي تنقل فيه مثل تلك الأخبار بوضع الكتابة، أي أنه تمثيل لحال الكتابة.

وعلى العموم، فقوله: «تبرق» إشارة إلى ذلك الأمر الخطير. إنه يأتي هنا بهذا الفعل ليربط بينه وبين البارقات أي السيوف التي تشبه البرق في لمعانها وشكلها، وما هذه الصحائف إلا السيوف اللامعة الجديدة المعدة للقتال والضراب.

وإذا قلنا إن الفعل «ذبر» هو عين الفعل «زبر» أي كتابة الزبر والإشارة إلى الكاتب اليماني كما وضحنا سابقا، فهذا الكتاب، إذن نقل للصورة الحميرية. وحسب فهمنا للفعل

«أبلغ» ولاسم المفعول «مغلغلة،» فإن «الكتاب» هنا إبلاغ للخبر مشافهة لا رسالة مكتوبة، فليس من المعقول أن يعرف الجاهليون الحميرية خاصة وأنه يكتب في العسيب مثلا، وناقل الخبر يصعب عليه أن يتغلغل بالعسيب إلى الأعداء. ويفسر لنا قوله: «ألبهم ومن حشدوا» أن الموقف موقف حرب وقتال بين الطرفين. وهنا تتبين الصعوبة التي يجدها مبلغ رسالة التهديد والوعيد. ثم تأتي الأبيات التي بعدها، فلا تترك مجالا للظن بأن الرسالة كانت مكتوبة، وإنما هو إبلاغ شفهي يقابله إبلاغ شفهي آخر، فمما قال:

الْمُوعِدِينَا فِي أَنْ تُقَتِّلُهُمْ أَبْنَاءُ فَهْمٍ وَبَيْنَنَا بُعَدُ(١٣٢)

والشيء نفسه يقال عن قول مليح الهذلي:

وَلَمْ يَجْرِ فِي الْأَخْبَارِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا أَمِيةُ لَنَا تُلْقَى إِلَيْهِ الرَّسَائِلُ(١٣٣)

وهو ما تحدث عنه عامر بن الطفيل فقال:

فَمَنْ مُبْلِغٌ ذُبْيَانَ عَنِّي رِسَالَةً مُغَلْغَلَةً مِنِّي وَمَا تَنْفَعُ الْعُذَرُ(١٣٤)

فما الرسائل إلا أقوال يتناقلها طرفان في وضع خاص. وقول زبان بن سيار المري:

وَإِنَّ قَتِيلاً بِالْهَبَاءَةِ فِي اسْتِهِ صَحِيفَتُهُ إِنْ عَادَ لِلظُّلْمِ ظَالِمُ
مَتَى تَقْرَؤُوهَا تَهْدِكُمْ مِنْ ضَلالِكُمْ وَتُعْرَفْ إِذَا مَا فُضَّ عَنْهَا الْخَوَاتِمُ(١٣٥)

ويمكن أن نوضح الفرق بين الاستعمال المجازي والاستعمال الفعلي للكتابة بالمقارنة بين قول أبي صخر الهذلي وقول الفرزدق، يقول أبو صخر:

فَأُقْسِمُ مَا تَنْفَكُّ مِنِّي قَصِيدَةٌ تُثَبَّى لَهُ مَا صَاحَ فِي الْجَوِّ نَاعِبُ
وَمَا نَزَلَ الرُّكْبَانُ بِالْخَيْفِ مِنْ مِنىً ثَلاثاً وَمَا خَاضَ الظَّلامَ الْكَوَاكِبُ

---

(١٣٢) السكري، شرح *أشعار الهذليين*، مج١، ص٢٥٦. ولعل أبلغ دليل على المعنى الشفاهي للرسالة، أنهم سموها: ألوكا ومألكه ومألكة لأنها تؤلك في الفم، من قول العرب: الفرس يألك اللجم، أي يمضغ. قال عدي بن يزيد: أبلغ النعمان عني مألكا أنه قد طال حبسي وانتظاري؛ *اللسان*، ألك.

(١٣٣) السكري، شرح *أشعار الهذليين*، مج٣، ص١٠٥٧.

(١٣٤) *ديوان عامر بن الطفيل*، تحقيق كرم البستاني (بيروت: دار صادر، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م)، ص٧١.

(١٣٥) ابن الأنباري، *المفضليات*، ص٦٩٤.

حَيَاتِي وَإِنْ يُصْبِحْ مَدَايَ بِقَفْرَةٍ ... تَجُرُّ عَلَيْهِ الْمُعْصِرَاتُ الْحَوَاصِبُ
يَرِثْنِي لَهُ الرَّاوُونَ مِنْ بعد مَوْتَتِي ... ثَنَائِي يَعْيِهِ مَشْرِقٌ وَمَغَارِبُ(١٣٦)

فهذه الأبيات واضحة الدلالة على أنها تنقل مشافهة وتروى رواية. أما الفرزدق فيقول في مدح أبان بن الوليد العجلي المهجو سابقا:

إِلَيْكَ أَبَانُ بْنُ الْوَلِيدِ تَغَلْغَلَتْ ... صَحِيفَتِي الْمُهْدَى إِلَيْكَ كِتَابُهَا(١٣٧)

فهو هنا يستخدم العبارة الجاهلية «تغلغلت» ويضيف إليها الصحيفة والكتاب. إنه يعني الممارسة الفعلية للكتابة، وأن القصيدة تنقل مكتوبة على الرغم من أنه يردد تعبيرا جاهليا ذكره الهذلي، وذلك قوله:

فَمَا أَحْيَ لَا تَنْفَكُّ مِنِّي قَصِيدَةٌ ... إِلَيْكَ بِهَا تَأْتِيكَ مِنِّي رِكَابُهَا(١٣٨)

ونحن لا نستبعد التدوين في حالة الفرزدق، فقد رأينا حرص جرير على ذلك، لأنه في عصر التدوين نفسه أثبت ذلك في قوله:

وَإِلَّا تُبَلِّغْهَا الْقِلَاصُ فَإِنَّهَا ... سَتُبْلِغُهَا عَنِّي بُطُونُ الصَّحَائِفِ(١٣٩)

وقد نلاحظ أنه في الشطر الأول من بيته يشير إلى الرواية حسبما كان مألوفا عند سابقية؛ أما في الشطر الثاني فالقصيدة سترسل مكتوبة. وقد مر بنا مناقشة استعمال الشعراء الكتابة في هذا العصر.

إن حمل الرسالة ههنا أمر وارد، والمعنى معقول مقبول كما قال الأقيبل القيني عندما هرب من الحجاج:

مُسْتَحْقِباً صُحُفاً تَدْمَى طَوَابِعُهَا ... وَفِي الصَّحَائِفِ حَيَّاتٌ مَنَاكِيرُ(١٤٠)

(١٣٦) السكري، شرح *أشعار الهذليين*، مج٢، ص٩٤٧؛ التشبية: الإشادة والذكر.

(١٣٧) *ديوان الفرزدق*، مج١، ص٥٧.

(١٣٨) *ديوان الفرزدق*، مج١، ص٥٨.

(١٣٩) *ديوان الفرزدق*، مج٢، ص٨.

(١٤٠) الجاحظ، *الحيوان*، مج٧، ص١٠٣. وقال ابن أحمر الشاعر الإسلامي:

إِذَا جَاءَ مِنْهُمْ قَافِلٌ بِصَحِيفَةٍ ... يَكُونُ عَنَاءً مَا يُنَبِّقُ عَانِيَا ـ

وإنه لمن المؤكد أن الرواية كانت هي الوسيلة الكبرى في نقل الشعر وانتشاره حتى في هذا العصر. فهذا الفرزدق نفسه يقول، كما قال سابقوه أيضا:

حَلَفْتُ بِأَيْدِي الرَّاقِصَاتِ إِلَى مِنىً تُجَرَّرُ فِي الْأَرْسَاغِ مِنْهَا نِعَالُهَا
لَتَطَّلِعَنْ مِنِّي بِلاَلاً قَصِيدَةٌ طَوِيلٌ بِأَفْوَاهِ الرُّوَاةِ ارْتِجَالُهَا(١٤١)

وهذا ذو الرمة يقول:

تَوَافَى بِهَا الرُّكْبَانُ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ وَيَعْلَى بِأَفْوَاهِ الرُّوَاةِ نَشِيدُهَا(١٤٢)

ومن هنا، فإننا مازلنا نعتبر الفرزدق مثله مثل سابقيه شاعرا بدويا أميا لجأ إلى كتابة شعره لوجود دافع إليه، كما صرح بذلك ذو الرمة.

وحسب هذا الفهم الذي سقناه، واستنادا إلى كل ما سبق يمكن أن ننظر إلى كل إشارة إلى الفعل «كتب» أو «أرسل» أو ما في معناهما، بحيث تدل على التبليغ الشفوي وليس الكتابي. ومثل ذلك، قصيدة لقيط التي يقول فيها:

هَذَا كِتَابِي إِلَيْكُمْ وَالنَّذِيرُ لَكُمْ لِمَنْ رَأَى رَأْيَهُ مِنْكُمْ وَمَنْ سَمِعَا

فالكتاب هو الرسالة الشفهية وليست المكتوبة. وهو ما صرح به قبل ذلك فقال:

أَبْلِغْ إِيَاداً وَخَلِّلْ فِي سَرَاتِهِمِ إِنِّي أَرَى الرَّأْيَ إِنْ لَمْ أُعْصَ قَدْ نَصَعَا(١٤٣)

ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم:

---

— وَتَعْرِفُ فِي عُنْوَانِهَا بَعْضَ لَحْنِهَا وَفِي جَوْفِهَا صَمْعَاءُ تَحْكِي الدَّوَاهِيَا
شعر *ابن أحمر*، ص١٧٤؛ ينبّق: يسطر.

(١٤١) *ديوان الفرزدق*، ص١٠٦.

(١٤٢) *ديوان ذي الرمة*، مج٢، ص١٢٤٠.

(١٤٣) *ديوان لقيط بن يعمر الإيادي*، رواية أبي منذر هشام بن محمد السائب الكلبي، تحقيق خليل إبراهيم العطية (بغداد: الجمهورية، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م)، ص ص١-٥٠؛ والرواية الأخرى: فإذا فهمنا «الكتاب» هنا بمعنى التبليغ الشفاهي أبلغ، فإن قوله:
سَلاَمٌ فِي الصَّحِيفَةِ مِنْ لَقِيطٍ إِلَى مَنْ بِالْجَزِيرَةِ مِنْ إِيَادِ
لا يخرج أيضا عن هذا المفهوم نفسه، أي معنى الصحيفة وليس نص الكتابة؛ *ديوان لقيط*، ص٣١.

أَلَا أَبْـلِغِ الـنُّـعْـمَانَ عَنِّي رِسَـالَـةً فَمَـجْـدُكَ حَوْلِيٌّ وَلُـؤْمُـكَ قَارِحُ[١٤٤]

بل منها أيضا قول بجير في كعب أخيه:

مَنْ مُبْـلِغٌ كَعْـبـاً فَهَـلْ لَكَ فِي الَّـتِي تَلُومُ عَلَيْهَـا بَاطِـلاً وَهْـيَ أَحْـزَمُ[١٤٥]

ويحق لنـا بعد ذلك أن نورد رأي السهيلي (توفي ٥٨١هـ) الفاصل في تلك المعاني السابقة حيث يقول: «سموا الرسالة: رسولا إذا كانت كتابا أو ما يقوم مقام الكتاب من شعر منظوم، كأنهم كانوا يقيمون الشعر مقام الكتاب، فتبلغه الركبان: كما تبلغ الكتاب. يعرب عن ضمير الكاتب كما يعرب الرسول. وكذلك الشعر المبلغ، فسمي: رسولا.»[١٤٦] ولذلك يرى الملسوت أن «الرسالة هنا ليست الصحيفة، وإنما هي الفكرة المرسلة في طي الأشعار وعلى ألسنة الرواة، والتي كانت تطير بمجرد إنشادها إلى المهجو أو الممدوح كالبرق.»[١٤٧]

ثم ما بالنا نذهب بعيدا في المناقشة والجدال، ولنا في جمع القرآن الكريم مندوحة عن التمجلات فهو لم يجمع في كتاب إلا بعد ظروف خاصة معلومة، علما بأنه كتاب ديني مقدس، وقد كانت كتابته أولا على آلات الكتابة المعروفة في ذلك الزمان[١٤٨] مع الأخذ في الاعتبار ندرة الكتاب أنفسهم في ذلك العصر. فنحن نعلم أنه عندما جاء الإسلام لم يكن

---

(١٤٤) «شعر عمرو بن كلثوم، تحقيق فريتس كرنكو، *المشرق*، م٢٠ (تموز ١٩٢٢م)، ص٦١١.

(١٤٥) ابن هشام، *السيرة النبوية*، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط٦ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، مج٤، ص١٤٥. علما بأن الخبر الذي أورده ابن هشام لم يذكر كتابة الشعر، ولذلك ربطه بالقول، أي التبليغ الشفوي، انظر: ص ص١٤٤ ـ ١٤٦.

(١٤٦) السهيلي، *الروض الأنف*، مج١، ص٤٠٨.

(١٤٧) عبدالحميد المسلوت، *نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي* (القاهرة: دار القلم، د.ت.)، ص١٧.

(١٤٨) محمد عبدالعزيز مرزوق، «المصحف الشريف،» *مجلة المجمع العلمي العراقي*، م٢٠ (١٩٧٠م)، ص ص٩٠، ٩١؛ لبيب السعيد، *الجمع الصوتي الأول للقرآن* (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٨م)، ص ص٣١-٣٩.

في مكة إلا كتاب قلائل ــ كما أنه لم يكن بالمدينة كتاب. [١٤٩] ولقد صرح أبوسفيان بذلك حين قال لكعب بن الأشرف اليهودي: «إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أميون لا نعلم.»[١٥٠]

## النتيجـــة

ونخلص بعدئذ إلى اتفاق مع اتجاه الرأي العلمي المعاصر عند بعض العلماء ممن يرفضون كتابة الشعر في العصر الجاهلي مثل المسلوت وعبدالمنعم الزبيدي، وإبراهيم السامرائي، ونابيا آبوت. يقول المسلوت: «نجزم بأن هؤلاء لم يعرفوا الكتابة ولم يتخذوها أداة لحفظ الشعر والإبقاء عليه.»[١٥١] ويقول الزبيدي: «ومما يؤكد أن نظم الشعر وروايته قبل الإسلام كانا قد قاما على المشافهة دون الكتابة هو أن الخطوط التي عرفها العرب آنذاك لم تكون تصلح لتدوين الشعر.»[١٥٢]

ويقول السامرائي في إشارته إلى ناصر الدين الأسد: «لقد اعتمد الدكتور على أبيات ما أظنها توصله إلى شيء من هذه الحدود الفنية.»[١٥٣]

وتقول نابيا آبوت: «تقبل الكاتبة لبعض الأسباب احتمالية أن الكتابة العربية كانت مستعملة في الأعمال الأدبية في عصور ما قبل الإسلام، خاصة بين العرب النصارى في العراق وسورية وعند المستوطنين المسيحيين واليهود الذين تحدثوا اللغة العربية في الجزيرة العربية نفسها.»[١٥٤] وحتى لا يفهم من قولها «الأعمال الأدبية» الشعر، بينت أنها تقصد

(١٤٩) الهوريني، *المطالع النصرية*، ص١٣؛ وانظر: أبا عبدالله محمد بن عبيدوس الجهشياري، *كتاب الوزراء والكتاب*، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط١ (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، د.ت.)، ص ص١٢-٣٣.

(١٥٠) القرطبي، *الجامع*، مج٣، ج٥، ص٢٤٩.

(١٥١) المسلوت، نظرية، ص١٦.

(١٥٢) الزبيدي، مقدمة، ص٤٩. وقد سبق لبلاشير أن قرر أن طريقة النظم عند الشاعر الجاهلي هي طريقة الرواية الشفوية لا الكتابة. ريجيس بلاشير، *تاريخ الأدب العربي*، ترجمة إبراهيم كيلاني (دمشق: دار الفكر، ١٩٥٦م)، ص ص٩٣-٩٩.

(١٥٣) إبراهيم السامرائي، «العربية والكتابة،» *الأقلام* (بغداد)، م١٧، ع ع ٧-٨، ص٦٧.

(١٥٤) Nabia Abbott, *Studies in Arabic Papyri II* (Chicago: Univ. of Chicago Press, 1964), p. 5.

النثر وبالذات الأعمال الدينية. وقد أشارت إلى «مجلة لقمان» وقراءة سويد بن الصامت لها أمام الرسول ﷺ، كما أشارت إلى ورقة بن نوفل.[١٥٥] وعلى العموم، فقد قالت: «ومع ذلك فإنه يبدو حتى من العرض القصير السابق أن أدب النثر الديني المكتوب باللغة العربية لم يكن بأية حال من الأحوال غريبا عن العرب قبل مجيء الإسلام.»[١٥٦] وهذا ما يذهب إليه أيضا عرفان شهيد بالنسبة لنصارى نجران.[١٥٧] كما يذهب جواد علي إلى أن التوراة كانت قد ترجمت إلى اللغة العربية.[١٥٨] ويمكن أن يضاف إلى أدب النثر الديني ما روي من أن وهب بن منبه قال: «قرأت من كتاب الله اثنين وتسعين كتابا.[١٥٩] وما روي عن أمية بن أبي الصلت: «كان قرأ الكتب المتقدمة من كتب الله جل وعز.»[١٦٠] وقول النابغة وهو يتحدث عن كتاب ديني للغساسنة ـ حسب رواية «مجلتهم» بدلا من «محلتهم»:

مَجَلَّتُهُمْ ذَاتُ الإلـهِ وَدِينُهُمْ قَوِيمٌ فَمَا يَرْجُونَ غَيْرَ الْعَوَاقِبِ[١٦١]

---

(١٥٥) Abbott, pp. 5-6.

(١٥٦) Ibid, p. 6.

(١٥٧) I. Shahid, *The Martyrs of Najran: New Documents,* Subsidia hagiographic, 49 (Brussels: Société de Bollandistes, 1971), pp. 10, 40, 62, 96-98, 157-58, and esp. 242-50.

علما بأن رؤساء نجران «كانوا يتوارثون كتبا عندهم، فكلما مات رئيس منهم، فأفضت الرياسة إلى غيره، ختم على تلك الكتب خاتما. . .»، *السيرة*، مج٢، ص٢٢٣، مما يدل على أن الكتب التي يتوارثونها قديمة العهد، أي إنها كتب بلغة غير اللغة العربية، وليس كما يذهب إليه عرفان شهيد.

(١٥٨) جواد علي، *المفصل*، مج ٦، ص٢٧٨.

(١٥٩) نشوان بن سعيد الحميري، *منتخبات في أخبار اليمن*، تحقيق عظيم الدين أحمد (ليدن: بريل، ١٩١٦م). وقد قيل إن فاطمة بنت مر الخثعمية بمكة كانت قد قرأت الكتب؛ أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم، *الفاخر*، تحقيق عبدالعليم الطحاوي ومحمد علي النجار (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م)، ص ص١٦٦-١٦٧.

(١٦٠) ابن قتيبة، *الشعر والشعراء*، مج١، ص٤٥٩. وانظر عن ورقة بن نوفل: عبدالقادر بن عمر البغدادي، *خزانة الأدب*، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م)، مج٣، ص ص٣٩١-٣٩٤.

(١٦١) *ديوان النابغة الذبياني*، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور (تونس: الشركة التونسية، ١٩٧٦م)، ص٤٩.

ولكن على الرغم من ذلك فإني أرى أنه حتى هذه الكتب لم تكن باللغة العربية، وأن من يزعم القراءة منها كان ينقل أفكاره ويترجمها إلى اللغة العربية. أما لغة هذه الكتب، فالراجح أنها إن كانت مسيحية فهي بالسريانية(١٦٢) وهو ما ذهب إليه لويس شيخو - وإن فهم أن قول بشر بن أبي خازم السابق (وجدنا في كتاب بني تميم) يعني الكتاب بعينه. ولكنه ليس كتابا باللغة العربية فقال: «ومن المرويات العديدة التي نقلها أول كتبة الإسلام على علاتها فأثبتوها بأسانيدها إلى بعض أهل الكتاب من نصارى ويهود. . . يظهر أنه شاعت في جزيرة العرب مصنفات شتى معظمها لبعض المبتدعين أو لكتبة مجهولين. . . وقد بقي منها أشياء في *قصص الأنبياء* للثعلبي وغيره، وفيها الغث والسمين. ومن هذه التآليف ما ورد ذكره في الشعر القديم ولا يعلم من أمره شيء كقول بشر بن أبي خازم، وقيل الطرماح، في كتاب بني تميم:

وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِي تَمِيمٍ أَحَقُّ الْخَيْلِ بِالرَّكْضِ الْمُعَارُ

وكانت بعض هذه التآليف مكتوبة بالسريانية والحبشية فوقف على مضامينها العرب ونقلوا أشياء منها خصوصا من كتاب «مغارة الكنوز.»(١٦٣)

أما إن كانت يهودية فهي بالعبرانية، وهذا ما يذهب إليه أيضا محمد الخضر حسين الذي يقول عن التوراة والإنجيل: «إنهما لم يخرجا إلى لسان العرب بعد، ولا يقرؤهما إلا من درس العبرية.»(١٦٤) وقد جاء في *صحيح البخاري* ما يرجح هذا الرأي حيث يقول: «كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام.»(١٦٥) بل ذكر كذلك أن الإنجيل نفسه كان مكتوبا بالعبرانية، وأن علماء من أمثال ورقة بن نوفل كان

(١٦٢) غريغوريس بولس بهنام، «العلاقات الجوهرية بين اللغتين العربية والآرامية (السريانية)،» *مجلة المجمع العلمي العربي* (دمشق)، م٣٤، مج١ (١٩٥٩م)، ص ٢٣٦.

(١٦٣) لويس شيخو، *النصرانية وآدابها* (بيروت: مطبعة الكاثوليكية، ١٩١٨م)، مج١، ص ص٣٣٥-٣٣٦.

(١٦٤) محمد الخضر حسين، *نقض كتاب*، ص٢١٧.

(١٦٥) أبو عبدالله بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، *صحيح البخاري*، كتاب التفسير، شرح الكرماني، ط٢ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، مج١٧، ص١٣.

يقرؤها بهذه اللغة، فقال: «ورقة بن نوفل... كان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية.»(١٦٦) وقد ذكر الله تعالى في محكم كتابه ردا على اتهام الكفار للنبي ﷺ بتعلم كتب أهل الكتاب: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ ﴾ (سورة النحل آية ١٠٣).(١٦٧) وهذا أصدق دليل على أن الكتب التي كانت بين أيدي المعاصرين للرسول ﷺ هي كتب بغير اللغة العربية، سواء أكان ذلك في مكة والمدينة أم في غيرهما من الحواضر العربية.

وأخيرا، فإن وجود أشكال مسرحية وموسيقى ورقص في جنوب الجزيرة العربية عند شعوب الدول التي تعاقبت هناك، مما ظل غير مدون ومرويا شفويا ـ على الرغم من وجود الكتابة(١٦٨) لديهم ـ لما يدعم الرأي أن أحفادهم أو جيرانهم العرب الشماليين كانوا على المنوال نفسه.

وإذا لم يثبت حتى الآن أن عرب الجنوب قد دونوا آثارهم الفنية فإنه لمن المستبعد أن يكون إخوتهم أهل الشمال الموغلون في البداوة قد دونوا أشعارهم بلغات غير لغتهم العربية، وهو ما يذهب إليه فؤاد الخطيب حيث يقول: «فالمرقش الأكبر كتب شعره بالأحرف السريانية، والغسانيون قد دونوا أشعارهم وأخبارهم بالعبرية والرومية أوالسريانية، وكان المناذرة مثلهم قد كتبوا الخط الآرامي.»(١٦٩)

---

(١٦٦) البخاري، صحيح، كتاب بدء الوحي، مج١، ص٣٨. أما ما جاء في مج١٨، ص٢٠١ من أن ورقة بن نوفل: «كان يكتب الكتاب العربي، ويكتب من الإنجيل بالعربية،» فهو تصحيف للعبراني بلا شك، كما تبين لنا. وانظر حاشية ص٣٨.

(١٦٧) القرطبي، *الجامع*، مج٥، ج١٠، ص ص١٧٧ ـ ١٧٨. وقد قيل إن النضر بن الحارث: «اشترى كتب الأعاجم: رستم واسفنديار»؛ القرطبي، *الجامع*، مج٧، ج١٤، ص٥٢.

(١٦٨) Petracek, p.305.

(١٦٩) فؤاد الخطيب، «صلة الجاهلية بالعالم القديم،» *مجلة المجمع العلمي العربي* (دمشق)، م١٧، ع ٨ (شوال وذو القعدة ١٣٦١هـ، تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٤٣م)، ص ص٤٨٩ ـ ٤٩٠.

وحيث إنه لا دليل على هذا القول عمليا، على الرغم من أنه لا علاقة لنا بكتابة الشعر بلغة غير اللغة العربية فالشاعر الجاهلي كان كما بينا يشير إلى غربة تلك الكتابة عنه، فإننا لنتفق مع ما ذهب إليه صلاح الدين المنجد حينما قال: «لقد كانوا في الجاهلية يكتبون الديون والأحلاف والهدنة، أي العهود والمواثيق.»(١٧٠)

فالكتابة من هذا النوع واضحة ثابتة في الشعر، حسب بعض التوجيهات كما في قول الأعشى:

وَلاَ ٱلْمَـلِكُ الـنُّـعْـمَانُ يَوْمَ لَقِـيتُـهُ بِغِـبْـطَتِـهِ يُعْـطِي الْـقُـطُوطَ وَيَأْفِـقُ

وهو يعني بالقطوط كتب الجوائز.(١٧١) وكما في قول قيس بن الخطيم:

أَتَـعْـرِفُ رَسْـماً كَاطِّـرَادِ ٱلْمَـذَاهِـبِ لِعَـمْـرَةَ وَحَـشـاً غَيْرَ مَوْقِفِ رَاكِبِ(١٧٢)

والمذاهب ألواح مذهبة وكتب مذهبة كان يكتب فيها إلى الملوك ولا يكلمون،(١٧٣) أو هي جلود مذهبة بخطوط يرى بعضها في إثر بعض فكأنها متتابعة،(١٧٤) ومنه قول النابغة الذبياني:

وَأَبْـدَتْ سِوَاراً عَنْ وُشُـومٍ كَأَنَّهَا بَقِـيَّةُ أَلْـوَاحٍ عَلَيْهِـنَّ مُذْهَـبُ(١٧٥)

وقد أشار عارق الطائي إلى العهد الذي كتبه عمرو بن هند إلى طيء فقال:

فَإِنَّ نِسَـاءً غَيْرَ ما قال قائـل غنيمـة سوء وسـطهن مهـارقـة(١٧٦)

ولم تقتصر كتب الجوائز تلك على القطوط، بل المهارق أيضا، قال الأعشى:

رَبِّي كَرِيمٌ لاَ يُكَـدِّرُ نِعْـمَـةً وَإِذَا تُنُـوشِـدَ فِي ٱلْمَهَـارِقِ أَنْشَـدَ(١٧٧)

---

(١٧٠) صلاح الدين المنجد، *تاريخ الخط العربي*، ط٢ (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٩م)، ص٢٣. وانظر إشارة الحارث بن حلزة إلى حلف ذي المجاز؛ أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، شرح *القصائد التسع المشهورات*، تحقيق أحمد خطاب، (بغداد: دار الحرية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، مج٢، ص٥٨٠.

(١٧١) القرطبي، *الجامع*، مج٨، جـ١٥، ص١٥٧.

(١٧٢) الشمشاطي، *الأنوار*، ص٥٢.

(١٧٣) الشمشاطي، *الأنوار*، ص٥٢.

(١٧٤) الزبيدي، *التاج*، طرد.

(١٧٥) الشمشاطي، *الأنوار*، ص٥٢؛ وانظر: ابن عاشور، *ديوان النابغة*، ص٥٨.

وقال عدي بن زيد:

فَأَيُّكُمْ لَمْ يَنَلْهُ عُرْفُ نَائِلِهِ دَثْراً سَوَاماً وَفِي الْأَرْيَافِ أَوْصَارَا[١٧٨]

والوصر الصك الذي تكتب فيه السجلات أي إنه أقطعكم كتب السجلات في الأرياف.

وانطلاقا من ذلك فإنه إذا تثبتنا من أن الكتاب في قول بشر بن أبي خازم السابق «كتاب بني تميم،» هو الكتاب بعينه وأن معنى البيت كما قال المبرد: «وجدوا هذه اللفظة مكتوبة»[١٧٩] على الرغم من أن هناك رواية أخرى تنسب الكتاب إلى غير تميم أيضا.[١٨٠] وكلتا القبيلتين بدوية، فإننا في المقابل نفترض أن المادة التي تكون منها ذلك الكتاب محدودة، أي أنها لا تستوعب إلا جزءا يسيرا من الكتابة، أو على تعبير المبرد «هذه اللفظة» وقد تكون مادته على سبيل المثال مادة المهرق، أي قماش أبيض يصقل ويكتب فيه الكتب والعهود وما أرادوا إبقاءه على الدهر،[١٨١] أي إنه لا يحتوي إلا على أمثال العهود والمواثيق، أي النثر وليس الشعر أي إنه نوع من أنواع الكتابة الرسمية الموجزة. وهو رأي أكده الجاحظ قبل ذلك حين قال: «والمهارق ليس يراد بها الصحف والكتب، ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين. أو كتب عهود وميثاق وأمان.»[١٨٢]

وعلى هذا الأساس يمكن قبول كون الجاهليين قد دونوا شيئا من الأمثال[١٨٣] حسب توجيه بيتي معقل بن خويلد السابقين، وحسب توجيه بيت بشر وهو ما قد يتفق مع كيفية

(١٧٦) المرزوقي، شرح *ديوان الحماسة*، مج٤، ص١٧٤٤؛ وانظر: مج٣، ص ص١٤٤٧، ١٤٦٧.

(١٧٧) الزبيدي، *التاج*، نشد. على الرغم من التفسير الآخر هو: إذا سئل بكتب الأنبياء أجاب؛ ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص٤٠١. وانظر: *ديوان الأعشى*، ص٢٢٩.

(١٧٨) الزبيدي، *التاج*، وصر؛ وانظر: *ديوان عدي*، ص٥٥.

(١٧٩) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، *الكامل*، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم (القاهرة: دار النهضة، د.ت.)، مج٢، ص٥٣.

(١٨٠) الزبيدي، *التاج*، عير.

(١٨١) المرزوقي، شرح *الحماسة*، مج٤، ص١٧٤٥.

(١٨٢) الجاحظ، *الحيوان*، مج١، ص٧٠؛ وانظر: الزبيدي، *التاج*، هرق، صلك.

(١٨٣) رودلف زلهايم، *الأمثال العربية القديمة*، ترجمة رمضان عبدالتواب، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ص ص٤٤، ٦٤.

الكتابة في ذلك العصر كما هو واضح، على الرغم من أن بعض الباحثين يتحفظ حتى في كتابة الأمثال. (١٨٤) ومع ذلك فإننا مازلنا نميل إلى أن «الكتاب» حتى حسب مفهوم بشر بن أبي خازم ومعقل بن أبي خويلد في البيتين اللذين قد يشيران إلى «المثل» لا يعدو المعنى المجازي للكتاب أي المآثر والأمجاد وليس أدل على هذا المعنى من قول الفرزدق مستخدما كلمة «الكتاب» وهو يعني به تلك المعاني نفسها حيث ورث مجد الشعر الذي خلفه الشعراء الذين ذكرهم. فقال:

وَالْجَعْفَرِيُّ وَكَانَ بِشْرٌ قَبْلَهُ     لِي مِنْ قَصَائِدِهِ الْكِتَابُ الْمُجْمَلُ

ويعني بالجعفري، لبيدا، ثم قال ذاكرا «الكتاب» أيضا:

دَفَعُوا إِلَيَّ كِتَابَهُنَّ وَصِيَّةً     فَوَرِثْتُهُنَّ كَأَنَّهُنَّ الْجَنْدَلُ(١٨٥)

وهنا لن نسمح لخيالنا بالجموح فنفسر الكتاب بغير هذا التفسير فنتصور أنه كانت بين يدي الفرزدق مجموعات شعرية لشعراء جاهليين أو نسخ من دواوينهم. (١٨٦) بل إن ذكر دغفل النسابة، وذكر الصحيفة كذلك لا يعني إلا ذلك الفخر بالأمجاد والأنساب في قوله:

أوصى عشية حين فارق رهطه     عند الشهادة في الصحيفة دغفل

وهذا على تصور كتابة الوصية في الإسلام في صحيفة، أي إن استخدامها هنا لا يخرج عن الاستخدام المجازي الذي عرفناه سابقا. ويدل على أن ما خلفه أولئك الشعراء كان موروثا شفاهيا وليس مكتوبا، قوله في بداية تعدادهم:

وَهَبَ الْقَصَائِدَ لِي النَّوَابِغُ إِذْ مَضَوْا     وَأَبُو يَزِيدَ وَذُو الْقُرُوحِ وَجَرْوَلُ

فهو قد ورث ما خلفوه من شعر مروي، وليس مكتوبا اختصوه به، أي إنه ذو القِدْح المُعَلَّى في الشعر وليس جريرا أو غيره، ممن يراهم دونه، فهم قد أوصوا له بالشعر، كتبوا له وصيته

(١٨٤) Dimitri Gutau, "Classical Arabic Wisdom Literature: Nature and Scope", *Journal of American Oriental Society*, 101 (1981), 25.

(١٨٥) *ديوان الفرزدق*، مج٢، ص ص١٥٩-١٦٠؛ وانظر: القصيدة ص ص١٥٥-١٦١.

(١٨٦) الأسد، *مصادر*، ص١٦٠؛ وانظر: ص٢٦٣، بل لقد غالى الأسد في رأيه حين زعم أن قول معقل بن خويلد السابق: «وإني كما قاله مملي الكتاب...» يعني: «أن هذا الشاعر قد قرأ بيته الثاني بهذه الألفاظ... في كتاب من كتب الشعر أو الأخبار الجاهلية ثم اقتبسه وضمنه قصيدته،» ص١٦٣.

ودفعوها إليه. وهناك فرق كبير بين «الوصية» و«الكتاب.» وفي جمع هؤلاء الشعراء في «وصية» واحدة وليس «وصايا» دليل آخر على النقل الشفاهي والمعنى المجازي للكتاب بل للوصية نفسها التي تعني ههنا القول المنقول. والفرزدق كما هو واضح يفتخر بأن كل هؤلاء الشعراء تركوا له تلك الآثار، ولكن هذا لا يعني أن شيئا من الأنساب أصبح يكتب في هذا الوقت، فهذا الفرزدق يمضي مع كاتبه ابن متويه إلى بني الرباب ليكتب عنهم مثالب بني جعفر بن كلاب، ثم يضمنها قصيدته التي يقول فيها:

ونبئت ذا الأهدام يعوي ودَنَه     من الشام زراعاتها وقصورها[١٨٧]

أما كتابة الوصية في هذا العصر، وكما يقول: الكلمة نفسها، فنجده في قول الفرزدق نفسه لابنه لبطة: «ابغني كتابا أكتب فيه وصيتي فأتيته بكتاب، فكتب وصيته: أروني من يقوم لكم مقامي.»[١٨٨] وهو اتجاه أصبح معروفا وتؤيده الدلائل الثابتة، مما يحتمل كتابة الشعر وغيره في هذه الفترة، كما مر بنا.

وهكذا فقد وضح لدينا أن الشاعر الجاهلي كان يصف الكتابة تقليدا ومحاكاة، وأن الظروف الحضارية للشعراء لم تكن مهيأة لكي يتطور فن الكتابة ويتيسر استعماله. أما الخطوط الأخرى بلغات أخرى فكانت تفوق قدرة الشاعر. كما كانت مقصورة ومحدودة على أجواء دينية واستعمالات خاصة ومن بين تلك الخطوط الخط المسند؛ أما النقلة الحضارية الفعلية فقد كانت بمجيء الإسلام حيث صرح الشعراء باستعمالهم للكتابة مباشرة أو غير مباشرة.

---

(١٨٧) أبو عبيدة، *نقائض*، مج٢، ص٩٠٨. وانظر القصيدة في *ديوان الفرزدق*، مج١، ص ص٣٦٢-٣٧٠. وعدد أبياتها ٩٢ بيتا.

(١٨٨) الأصفهاني، *الأغاني*، مج٢، ص٤٠٩.

أَرُونِي مَنْ يَقُومُ لَكُمْ مَقَامِي     إِذَا مَا الْأَمْرُ جَلَّ عَنِ الخِطَابِ

وبعده بيت آخر هو:

إِلَى مَنْ تَفْزَعُونَ إِذَا حَثَوْتُمْ     بِأَيْدِيكُمْ عَلَيَّ مِنَ التُّرَابِ

*ديوان الفرزدق*، مج١، ص٩٥.

وبعد، فهذا ابن سلام يقول عن العرب: «لم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب.»[١٨٩] وهذا الجاحظ عندما تحدث عن الكتابة لم يشر إلى الكتابة عند العرب بل قال: «وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى وكان ذلك هو ديوانها.»[١٩٠] وقال أيضا: «تقييد المآثر، إذا لم يكن ذلك من عادة العجم، ولا كان يحفظ ذلك معروفا لسوى العرب، ونحن نربطها بالشعر المقفى، ونصلها بحفظ الأميين بالذين لا يتكلمون على الكتب المدونة والخطوط المطروسة.»[١٩١] وقال حمزة الأصفهاني عن الكتابة العربية بعد أن بين أن الكتابة العربية حديثة العهد تعود إلى فترة حرب بن أبي سفيان جد معاوية: «فحدوث الكتابة للعرب قبل الإسلام صحيح، يؤيده حدوث آلات أخرى لهم لم تكن من قبل منها الخطابة والبلاغة وقول الشعر، فإن هذه الأشياء كلها قريبة من ميلاد إقبال دولتهم، وقد كانوا غبروا بباديتهم الدهر الأطول وهم أميون لا يقرؤون ولا يكتبون.»[١٩٢] وقال ابن حزم: «لم يكن للعرب كتاب، وإنما بقي من أشعارها شعر من أدرك رواته الإسلام فقط.»[١٩٣] وفي هذا الدليل الحاسم على مجمل ما ذهبنا إليه، وهو أن العرب لم تستعمل الكتابة في الشعر البتة. وإنما كانوا يعتمدون على الرواية الشفوية فقط، ولولا الإسلام لما وصلنا حتى أقل القليل مما خلفته الجاهلية ولخضع شعر الشعراء المشاهير، في العصور اللاحقة ـ أمثال الأخطل والفرزدق وجرير وذي الرمة ـ لما خضع له شعر أجدادهم من عظماء الشعراء والمبرزين منهم. ومن ثم يمكن أن نختتم هذا البحث بقول ابن منظور، وإن كان فيه تعميم لكنه على الأقل ينطبق على ما نذهب إليه في نفي كتابة الشعر، قيل للعرب الأميين، لأن الكتابة فيهم عزيزة أو عديمة، وقوله: «أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب.»[١٩٤] كما قال إن معنى الكاتب هو العالم، وأنه نادر

(١٨٩) ابن سلام، *طبقات*، ص٢٢.

(١٩٠) الجاحظ، *الحيوان*، مج١، ص٧٢.

(١٩١) الجاحظ، *رسائل*، «مناقب الترك،» مج٢، ص ص٢١-٢٢.

(١٩٢) الأصفهاني، *التنبيه*، ص ص١٩-٢٠.

(١٩٣) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م)، ص٤٥٦.

(١٩٤) ابن منظور، *اللسان*، أمم.

بين العرب، وذكر عن رسالة للنبي ﷺ جاء فيها ذكر الكاتب: «وفي كتابه إلى أهل اليمن: قد بعثت إليكم كاتبا من أصحابي،» أراد عالما، سمي به لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة، أن عنده العلم والمعرفة، وكان الكاتب عندهم عزيزا وفيهم قليلا.»(١٩٥)

ومن ثم يمكن أن نختتم هذا البحث بقول محمد لطفي جمعه وهو من أشد أنصار صحة الشعر الجاهلي، وتأكيده على شفوية الرواية وعلى أمية الجاهليين: «كانت العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، فكان كل عربي يعلم بمقدار حفظه ووعيه، فتحمل ذاكرته ما يعرض له من الحوادث والمعاني، فكان العربي كتابا يقظا يسمع ويخزن ويروي، وكانت القبيلة سجلا حيا منطويا على الآثار والأخبار.»(١٩٦)

وقد ذهب طه حسين قبله إلى رأي لم يقطع فيه برفض فكرة كتابة الشعر الجاهلي، ولكنه قال: «إن كثيرا جدا من الشعر القديم لم ينقل إلى الأجيال مكتوبا، وإنما نقلته الذاكرة.»(١٩٧) وإن كان قال: «بعد أن عبث النسيان والزمان بها قد حفظ من شعر العرب في غير كتابة ولا تدوين،»(١٩٨) ولكنه في الواقع رفض فكرة كتابة المعلقات خاصة رفضا تاما.(١٩٩)

وهكذا توصلنا هذه النتائج إلى الحقائق التالية:

أولا: مدى الصعوبة التي يواجهها الكاتب لو حاول أن يكتب القصيدة الجاهلية.

ثانيا: أنه من الواضح أن الكتابات في مجالات الحياة الأخرى جد قصيرة مما يدل على

---

(١٩٥) ابن منظور، *اللسان*، كتب.

(١٩٦) محمد لطفي جمعة، *الشهاب الراصد*، ط١ (القاهرة: المقتطف، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م)، ص٢٥٨؛ وانظر ص٢٦٩.

(١٩٧) طه حسين، *حديث الأربعاء* (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٢م)، مج١، ص٣١؛ وانظر رأيه في كتابه أبيات لبيد في الإسلام، ص٤٢.

(١٩٨) طه حسين: *في الأدب الجاهلي*، ط١٦ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٩م)، ص٢٤٤.

(١٩٩) طه حسين، *في الأدب الجاهلي*، ص٢٠٤.

المعاناة التي يبذلها الكاتب في كتابتها، وهو أمر لا يساعد على القول بكتابة القصيدة أيا كان حجمها.

ثالثا: أن الكتابات في مجال غير الشعر اقتصرت على حالات خاصة بالحكام والسادة ولم تكن عامة.

رابعا: وهي النقطة المهمة جدا ـ أن هذه الكتابات كانت على ندرتها خاصة بالمناطق الحضرية في أطراف الجزيرة العربية (حران، زبد، أم الجمال) وبالذات في الجزء الشمالي من الجزيرة.

خامسا: أن الكتابة الحقيقية للشعر ابتدأت مع ظهور الإسلام في شكل أبيات محدودة ومع ذلك فقد كانت نادرة وفي حالات خاصة أغلبها رسمي، ثم تطورت شيئا فشيئا حتى وجدنا الشعراء أنفسهم في العصر الأموي يحرصون على كتابة شيء من شعرهم، ومع ذلك فقد كانت الرواية الشفوية هي الأساس حتى ظهور الشاعر الكاتب في العصر العباسي.

سادسا: إن أول كتاب ظهر في اللغة العربية، هو القرآن الكريم، وإن ما سبقه من محاولات ليست إلا حالات خاصة من أدب النثر الديني، وهي حالات على الرغم من ندرتها ما زالت غير مؤكدة.

# Writing of the Jāhilliyya Poetry

**Fadl Ammar Al-Ammary**
*Associate Professor, Department of Arabic, College of Arts,*
*King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia*

**Abstract.** There is a long-held belief in Arabic literature that Arabic poetry in the pre-Islamic era was set to writing, and that there were tools which the poets used in writing. This belief seems to be based on references to 'the book' in verses such as:

"in the book of Tamīm we've formed,the hours worthy of galloping are the ones that are borrowed."

This belief also finds justification in the interpretation of phrases such as "Convey to the people of ... " and "Convey to him that ... " etc. in terms of delivering a written message. Contrary to this long-hold belief, all pre-Islamic evidence shows that none of the Jāhilliyya poets used writing, even though words such as "mahraq", 'ṣaḥīfa", 'qirṭās', etc. were frequently used to describe old encampments. The use of such words implies that the Arab poets thought of writing as something old and as vague as the Yemeni, the Jewish and the Persian writings seemed to them. This use can be also found in the works of Jārir, al-Farazdaq and Dhu-ar-Rumma, etc. in the Islamic period.

It is evident that writing was practised during the Islamic period, and that some poetry was written. Nonetheless, none of the above mentioned famous poets was able to write his poetry himself. Thus, this article argues against the belief that Arabic petry was set to writing in the pre-Islamic period.